المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

من المسرح العالمي

# يفغيني أونيغين

تأليف: بيوتر تشايكوفسكي

مكتبة 466

ترجمة: أ. محمد صالح

مراجعة: أ. د. منذر ملا كاظم

المقدمة والدراسة النقدية: أ.د. أشرف الصباغ

العدد 400

مايو 2019

تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

مكتبة
جديد الكتب والروايات

# يفغيني أونيغين

تأليف: بيوتر تشايكوفسكي

ترجمة: أ. محمد صالح

مراجعة: أ. د. منذر ملا كاظم

المقدمة والدراسة النقدية: أ. د. أشرف الصباغ

t.me/ktabrwaya

مكتبة | 466

مكتبة

# المقدمة

أ. د. أشرف الصباغ

وُلد ألكسندر سيرغيفيش بوشكين في عام ١٧٩٩ في موسكو. كان والده ينحدر من عائلة أرستقراطية ووالدته كانت حفيدة أبرام هانيبال الذي تبناه بطرس الأكبر وأصبح رفيقه في السلاح. تعلم بوشكين اللغة الفرنسية قراءة وكتابة من والديه، وغالبا ما كانت ترعاه جدته مع بقية إخوته وتحكي له القصص والحكايات الروسية التقليدية، كما كان يقضي الكثير من الوقت في القراءة بمكتبة والده.

إن الكتابة عن شخصية بوشكين وتاريخه متواصلة ومستمرة في روسيا وخارجها، ولم تنقطع يوما، حتى بعد مقتله في المبارزة الشهيرة عام ١٨٣٧. وتعتبر حياة الشاعر «القصيرة» بحد ذاتها ملحمة ضخمة متعددة الأوجه والمسارات. فقد التحق بالكلية الإمبراطورية عام ١٨١١، وبدأ مسيرته الأدبية بنشر بعض القصائد عام ١٩١٤. وكتبت مكارم الغمري عن هذه الفترة: «في ليسيه مدينة بطرسبورغ تتفتح مواهب بوشكين الشعرية وتتوهج أشعاره في سنوات النهضة القومية الوطنية التي بعثتها الحرب الروسية النابليونية في عام ١٨١٢، وأيقظت المشاعر الوطنية للشاعر الشاب».

في عام ١٩٢٠ أكمل بوشكين عمله الأول «روسلان ولودميلا»، الذي

كان عبارة عن قصيدة شعرية مكتوبة بطريقة سردية مستوحاة من شعراء مثل الإيطالي لودوفيكو أريوستو والفرنسي فولتير. لكنها كانت مطعمة بالفولكلور والتراث الروسيين. وهوجمت القصيدة من قبل المدرستين الأدبيتين الكلاسيكية والرومانسية في ذاك الوقت. وبالرغم من ذلك فقد جلبت له الشهرة، حتى أن الشاعر المشهور فاسيلي جوكوفسكي قدّم له صورة موقعة كتب عليها «إلى الطالب المنتصر من الأستاذ المهزوم». ولجوكوفسكي قصص وحكايات طويلة مرتبطة بحياة بوشكين، من بينها «الشعر والعلاقة مع الماسونية الروسية».

من أعماله وأشعاره «غابرلياد»، و«أفريقي بطرس الأكبر» و«حكايات بيلكين» و«بيت في كولومنا» و«ابنة القبطان» و«يفغيني أونيغين» و«دوبروفسكي» و«الملكة البستوني» و«رحلة إلى أرضروم» و«القصائد الشرقية»، و«أسير القوقاز» (١٨٢١)، و«الأخوة قطاع الطريق» (١٨٢٢)، و«نافورة باختشي سراي» (١٨٢٣)، و«الغجر» (١٨٢٤)، و«الفارس البرونزي». ومئات القصائد وعشرات الكتب الأخرى.

وصل بوشكين إلى ذروة إبداعه بين عامي ١٨٢٩ و١٨٣٦، حيث كانت معظم الأعمال التي ألفها في تلك الحقبة ذات تأثير وبصمة مهمين في الأدب الروسي ومن هذه الأعمال «موتسارت وساليري» و«تراجيديات صغيرة» و«الفارس البخيل»، و«بوريس جودونوف»، و«الاحتفال في زمن الكوليرا»، و«الضيف الحجري»، وغيرها.

في تلك الفترة، ظهرت جمعيات سياسية سرية، بين طليعة النبلاء المثقفين في بطرسبورغ، تعد العدة للإطاحة بالحكم القيصري وإلغاء نظام الرق، متأثرة بأفكار التنوير الغربي والروسي والثورة الفرنسية. هذا إضافة إلى البدايات الأولية لحركة «الديسمبريين»، أول حركة روسية ثورية تحريرية في تاريخ روسيا خلال القرن التاسع عشر. وعلى الرغم من أن بوشكين لم يكن مشاركا في هذه الحركة فإن أشعاره الوطنية الاحتجاجية ضد الظلم الاجتماعي خاصة في قصائده: «الحرية» (١٨١٧) و«الي تشاداييف» (١٨١٨)، و«القرية» (١٨١٩)، جعلت منه صوتا معبرا عن هذا النزوع الثوري. وأكسبته شعبية هائلة أثارت غضب القيصر فقرر نفيه إلى سيبيريا ثم خفف الحكم بالنفي إلى الجنوب حيث قضى أربع سنوات (١٨٢٠ - ١٨٢٤).

عاش ألكسندر بوشكين (١٧٩٩ - ١٨٣٧) ثمانية وثلاثين عاما، كانت من الأعوام الأكثر صخبا وغرابة في التاريخ الروسي. لكن تلك السنوات رغم قلتها، كانت كافية لكي تصنع منه شاعر روسيا الأكبر ومؤسس أدبها الحديث. لقد ولد في موسكو، ليموت في سانت بطرسبورغ بطريقة تراجيدية تتوازى تماما مع مصير الشاعر «لينسكي» في «يفغيني أونيغين». ومع ذلك فقد ترك بوشكين الكثير من الأعمال الشعرية والروائية والمسرحية التي لم تجعل منه كاتبا كبيرا فقط، بل بطلا قوميا أيضا.

لقد انفتح الأدب الروسي مع بوشكين على الأدب الإنساني كله، وتركت مؤلفاته بصمات قومية ليس فقط على صفحات الأدب الروسي نثره

وشعره، بل وأيضا على اللغة الروسية نفسها. ويأتي تصنيف بوشكين من قبل العلماء، كمؤسس اللغة الأدبية الروسية، لا يعني أنه كان أول كاتب أو شاعر يبدع روايات أو قصائد مثالية بهذه اللغة، بل إن بوشكين بات أول شخص استطاع الاستفادة في مؤلفاته من الفرص الفنية التي توفرها اللغة الروسية، وفي كل كتاب له يختبر بوشكين ليونة اللغة الأدبية الروسية ليرسم حدودها، ولو خسرت هذه اللغة جميع ناطقيها لكان بوسع العلماء إحياؤها استنادا إلى «ابنة القبطان» أو «يفغيني أونيغين» حصرا.

وبالتالي، لم تكن مؤلفات بوشكين مجرد «موسوعة الحياة الروسية»، كما وصف الناقد الأدبي الشهير فيساريون بيلينسكي رواية «يفغيني أونيغين» الشعرية، بل وموسوعة اللغة الروسية بالدرجة الأولى، وذلك يفسر تخلف بوشكين في شعبيته خارج روسيا عن دوستويفسكي وتولستوي، اللذين كانا يخلقان نماذج العالم الأكثر تعقيدا، غير أن الإنسان الروسي، على مر العصور، يرى في بوشكين «أمير شعراء روسيا». وقال عنه غوغول: «إن بوشكين ظاهرة خارقة يمثل الإنسان الروسي في تطوره الذي ربما يمكن أن يكون عليه بعد قرنين من الزمن». في قصائد بوشكين تبدو أمامك الأرض الروسية تاريخا وواقعا وترقبا. بينما كتب دوستويفسكي: «ما من كاتب روسي لا قبله ولا بعده بقي في يوم من الأيام متحدا بشعبه اتحادا بلغ هذا المبلغ من العمق». وليس من قبيل الصدفة أن الشاعر ألكسندر بلوك قال، في عام ١٩١٩ وسط غبار وفوضى الحرب الأهلية، في خطاب له بمناسبة الذكرى الرابعة والثمانين لوفاة بوشكين، «إن أهم ما تركه

بوشكين لشعراء الأجيال القادمة هو «الحرية الخفية» التي لا علاقة لها بالظروف السياسية والاجتماعية بل بحالة النفس وحدها».

إن حياة بوشكين وعلاقته بالماسونية وبحركة الديسمبريين، ثم بالقيصر نيكولاي الأول، وبعد ذلك علاقة زوجته نتاليا جونتشاروفا مع الفرنسي جورج دانتيس، كلها تثير العديد من علامات الاستفهام، لسببين مهمين:

الأول، يتعلق بتدخل السلطات القيصرية ومن بعدها السلطات السوفييتية في رواية مصرع بوشكين على يد دانيس، ومحاولات تطويع رواية الموت وفقا لتوجهات كل منهما، وسعيهما لتبرئة هذا الطرف أو ذاك، أو الحط من شأن طرف وإعلاء شأن طرف آخر.

والسبب الثاني، هو تلك العلاقة العضوية الدالة بين حياة بوشكين وأفكاره ونفيه ثم مصرعه، وبين حياة وأفكار ومصرع فلاديمير لينسكي بطل «يفغيني أونيغين». لأن تقاطع المصائر في الواقع وفي الرواية أمر مثير للدهشة، وحيث أحداث الرواية سبقت أحداث الواقع!

لقد كان في الثانية والثلاثين من عمره حين كتب رواية «يفغيني أونيغين». أو بالأحرى حين أنجز كتابتها ونشرها في طبعة أولى. وفي الحقيقة، فقد بدأ كتابتها قبل ذلك بكثير، في عام ١٨٢٢، وكان بعد في الثالثة والعشرين من عمره. وكان في أوج نشاطه. بل ويدور الحديث عن علاقته بالحركة الماسونية في تلك الفترة. وعندما صدرت الطبعة الأولى،

كان بوشكين قد تزوج قبلها بعام واحد من ناتاليا جونتشاروفا. أما الطبعة المكتملة لها فلم تصدر إلا في عام ١٨٣٣. وهذا هو العام الذي وصل فيه دانيس إلى بطرسبورغ.

كل هذه التواريخ تمتلك دلالات خطيرة ومهمة في علاقتها بمصير كل من بوشكين الشاعر الحقيقي على أرض الواقع، وبمصير لينسكي الشاعر، أحد الأبطال الرئيسيين للرواية.

في الخامس من يونيو عام ١٩٩٩، نشرت صحيفة «نيزافيسيمايا جازيتا» الروسية في ملحقها الخاص عرضا كاملا لعلاقة بوشكين بجماعة «البنائين الأحرار» الماسونية، جاء فيه أن تاريخ علاقة تعاون بوشكين مع «أخوية البَنَّائين» الأحرار لم يكن أبدا بسيطا أو سهلا، وإنما كان تاريخا طويلا ومعقدا. ولم يستطع صديقه القديم، الأمير بيوتر فيازيمسكي الذي كان عضوا في أحد أجنحة وارسو (حيث يوجد حاليا اعترافه الشخصي بذلك)، أن ينهي هذا التاريخ إطلاقا حينما وضع القفاز الذي يصاحب الطقوس الماسونية في تابوت الشاعر المقتول كعلامة وداع «أخ» لـ «أخيه». هنا توجد، كما في السابق، العديد من الألغاز والأسرار والأساطير على الرغم من الكتابات الكثيرة في هذا الموضوع، وخاصة في السنوات الأخيرة. إن وجود كتابات كثيرة في هذا الموضوع أمر جيد بالطبع، ولكن غير الجيد هنا هو أمر آخر: وهو أن الموضوع العلمي العادي جدا «بوشكين والماسونيون» يتم فهمه والتعامل معه بشكل انفعالي خالص، أي بشكل غير علمي وغير تاريخي. فحول هذا الموضوع تكوَّنَت

ميثولوجيا كاملة، من جانب الماسونيين والمناهضين للماسونية على حد سواء، ضربت ستارا حديديا من التعتيم على الجوهر الحقيقي والواقعي للأمر. هنا قيلت آراء وأفكار قاطعة، بيد أنه لا يوجد سوى القليل من الوثائق والمستندات الجديدة والموثَّقة التي عُثِر عليها، والقليل أيضا من الوقائع والحقائق. والأمر الرئيسي هنا، هو الفهم الموضوعي والعلمي لهذه المستندات والحقائق. بالإضافة إلى أنه لم يتم بعد تحديد الأمر الرئيسي، ألا وهو مكانة الماسونية في تاريخ الثقافة الروحية الروسية. وقد كان بوشكين وليد ووريث كل هذه الثقافة في آن واحد، حيث دخلت فيها ماسونية القرن الثامن عشر كجزء أساسي مهم وكمصدر رئيسي للأفكار الإبداعية والفلسفية. والحديث يدور هنا حول شمولية النظر إلى العالم، وكلية إدراكه، وفلسفة الحياة أيضا.

كانت الماسونية أحد الأساليب الوضعية والمؤثرة للغات الثقافية في العصر ما قبل البوشكيني والبوشكيني الذي لم يُسَلِّم أو يرضخ للرومانتيكية. إلى جانب كل ذلك، فالماسونية بطبيعتها وأهدافها كانت منذ البداية تمثل ظاهرة أممية، ومن ثم مَثَّلَت مرحلة أو عصرا في التاريخ العالمي وفي الثقافة العالمية، وكان هذا الوضع معروفا بشكل جيد لبوشكين، وظل على الدوام يجذب اهتمامه. والأهم أنه كان يرى في أخوية البنَّائين الأحرار السرية، وفي حلقة نيكولاي نوفيكوف، أسرة تضم الناس الأصلاء والموهوبين والمخلصين. أما الذي كان يثير القلق لدى بوشكين، فهو الازدواجية، والمصير التراجيدي، والأفكار الواضحة

المُصَادَرَة، وشخصيات عصر التنوير، بينما كانت الماسونية الروسية هي الرد الفلسفي على «غرور الفكر» في القرن الثامن عشر.

كان هناك اهتمام واضح وضخم ودائم من جانب بوشكين، طوال حياته، بالماسونية. والمعروف أن والده وجده فاسيلي لفوفيتش كانا عضوين في أخوية البنائين الأحرار، وأن أفكار الأخوية، وكتب ومجلات نيكولاي نوفيكوف وإيفان لوبوخين، ومطبوعات ألكسندر لابزين وبلاتون بيكيتوف، كانت جميعها تحيط بالصبي الصغير، وكان يتم تقبلها والتعامل معها كميراث وكجزء من الحياة الثقافية للأسرة. في تلك الفترة تقدم الصبي بوشكين، بناء على نصيحة الماسوني ألكسندر تورجينيف، للدراسة في الكلية القيصرية الريفية التي تأسست بناء على فكرة الوزيرين الماسونيين ميخائيل سبيرانسكي وألكسي رازوموفسكي تحت قيادة المدير فاسيلي مالينوفسكي مؤلف مجموعة الرسائل التي لم تنشر بعد كاملة عن «العالم السرمدي» (وهو واحد من أهم الموضوعات الماسونية التي كان بوشكين يهتم بها على الدوام، والتي كتب عنها عام ١٨٢١ بتفهم عميق وكامل لجوهرها)، والأساتذة الذين انتموا إلى أخوية البنائين الأحرار بالاشتراك مع من أطلقوا على أنفسهم «أبناء الأرملة»، أي أبناء الطبيعة المترملين ليلا بدون شمس والذين ينتظرون النور والبعث.

تلك الكلية التي تم إعدادها لكي تصبح معملا لتفريخ الصفوة الماسونية ومركز تجمعها، كانت وليدة، وجزءا من تلك الظاهرة الفريدة التي يمكن أن نطلق عليها الصوفية التنويرية لعصر ألكسندر. هنا اتسعت بشكل جامح

جدا، أمام بوشكين، دائرة معارف الماسونيين، بداية من بيوتر تشادايف ونهاية بألكسندر جريبويدوف. وبدأ تأثير الوسط عليه، وصارت أفكار الأخوية هي القوة المحرِّكة ليس فقط بالنسبة للأفكار السياسية، وإنما أيضا في الأدب. وبالتالي، كان من البديهي تماما أن يحاول الشاب الانتماء، في سبتمبر عام ١٨١٨، إلى جناح «الفضائل الثلاث»، وهي المنظمة التي تم تسييسها كليا وأصبحت في يد الديسمبريين.

لم يُكتب لهذه المحاولة التوفيق لأسباب غير معروفة بعد. ولكن بوشكين لم يتراجع عن تلك الفكرة. وفي عام ١٨٢١ كتب: «قبلني الماسونيون في ٤ مايو». ومن المؤسف أن المعلقين لم يتناولوا أو يفسروا تلك الكلمات المهمة والخطيرة للشاعر ذي الاثنين والعشرين عاما، والذي تم قبوله فقط كـ «تلميذ» في المرحلة الأولى كما هو منصوص عليه في ماسونية «يوحنا». ومن ثم أصبح بإمكانه الاشتراك فقط في الاجتماعات الدراسية - التعليمية للجناح. وفي تلك الفترة كان أصدقاؤه المؤثرون من أمثال الجنرال بافل بوشين وميخائيل أرلوف وسيرغي كوتشكوف في مستويات أعلى، وكانوا يجتمعون في جناح الأستاذة. ولكن يبدو أنهم نسوا القَسَم الماسوني (كان هذا القَسَم يتضمن كلمات فظيعة «في حالة أقل خرقا لالتزاماتي، أُعَرِّض نفسي للإطاحة برأسي، وإخراج قلبي ولساني، وانتزاع أحشائي الداخلية وإلقائها جميعا في قاع البحر، وأن يُحرَق جسدي بعد ذلك ويُنثَر رماده في الهواء»)، ونسوا أيضا أنه بعد النطق بتلك الكلمات العتيقة التي عفى عليها الزمن يجب أن يختموا لسان الشاعر بالختم

المعدني: «ختم التواضع السليماني». بعد ذلك لم يكن هناك طريق للرجعة من تلك الحلقة «الأخوية». ولكن هل تمت مراعاة جميع تلك القواعد والحفاظ عليها في أثناء قبولهم لبوشكين في الجناح؟

وراء تلك التفاصيل الحياتية، والتي تعتبر بلا شك مهمة وخطيرة، يمكن أن نخمن الرغبة القوية والملحة للشاب بوشكين في الارتباط مع، والمشاركة في، التقاليد الثقافية التي أثّرت على الشخصيات المهمة المحيطة به، وعلى عمليات البحث الروحي للعصر، وقبل كل شيء على الأدب. أما مسألة عدم فتور ذلك الاهتمام مع الزمن، على الرغم من أنه صار أكثر انتقادا، فتؤكده العديد من الحقائق الأخرى في حياة بوشكين، وخاصة كتاب الباحث التاريخي الفرنسي أ. لينوار حول الماسونية، والذي تم العثور عليه فى مكتبة الشاعر. إننا لا نستطيع أن نفهم علاقة التعاون المتبادَلَة بين الشاعر العظيم وبين أخوية البنائين الأحرار السرية على مستوى جميع مراحلها الصعبة وحركتها الديناميكية التي مرت بها، إذا لم نلق النظر على أرشيف البوليس السري (الذي يسمى حاليا بالأرشيف الحكومي لروسيا الفيدرالية، القسم الخاص، الصندوق رقم ١٠٩) حيث تحفظ جميع الأوراق الماسونية، وجميع الملاحظات الشخصية بخط اليد، والتي صودرت بناء على الأوامر القيصرية من عند جميع العاملين في الأجهزة الحكومية أثناء منع الجناح عام ١٨٢٢. إن هذه الوثائق والمستندات تغيِّر بشكل دامغ ومدهش وجهات نظرنا في المحيطين ببوشكين. بل ونكتشف بشكل غير متوقع الشيء الذي وحَّد عشرات ومئات الناس المختلفين والمعروفين.

وكانت قائمة بوشكين مليئة بهذه الأسماء التي سقط من بينها كونستانتين باتيوشكوف، وفاسيلي جوكوفسكي الذي تربى في الوسط الماسوني بأسرة تورجينيف وفي مدرسة موسكو العليا للنبلاء.

إن الآثار المتراكمة على مدى سنوات طويلة، والأعمال المهمة للشاعر في علاقتها بهذا التراث يمكن أن تُحَس ليس فقط في «الملكة البستوني»، و«الحانوتي»، و«موتسارت وساليري»، بل وأيضا في «روسلان ولودميللا»)، حيث ما تم تصويره على نحو مبتكر وغير مألوف إلى حد ما قد انعكست فيه النماذج الشخصية العارفة وأفكار «الأب الروحي» للبنائين الأحرار إيبوليت بوغدانوفيتش وقصيدة «غافريليادا» التي تبدو محاكاة مشاكسة ليس إطلاقا للكتاب المقدس (وهذه الفكرة عبثية جدا على الأقل من وجهة نظر الجنس الفني الشعري)، وإنما لعمل شعري محدد تماما، وهو القصيدة الجادة جدا والخطيرة والعبقرية للماسوني فيودر كليوتشاريف بعنوان «تجسيد الرسالة»، والتي شاعت في أوساط البنائين الأحرار ودخلت إلى قوائمهم عام ١٨٠١.

إن بوشكين ذاته حينما تعامل في «يفغيني أونيغين» بسخرية مع كلمة جريبويدوف «فارامازون»[1]، أشار إلى خطورة التعامل البسيط والهيستيري مع تلك الصفحة السرية من حياته. وعلى اعتبار أن الحديث عن كلمة «فارامازون» واسعة المعنى قد جاء في كتاب يوري لوتمان بشكل

(١) الشخص الذي يفكر بحرية، ولا يؤمن بالإله. وقد حدث التلاعب هنا في حرفي السين والزاي.

موجز ومقتضب وغير واضح، وأقل مما جاء في الكتاب المنسي لنيكولاي برودسكي، يمكننا أن نُذَكِّر هنا برأي الباحث التاريخي (الماسوني) ألكسندر كيزيفيتر: «لقد أشار بوشكين هنا بدقة غير عادية إلى الملمح الأساسي لعلاقة الجمهور العادي والبسيط بالماسونيين. فالماسوني بالنسبة للشخص العادي والبسيط مجرد ذلك الإنسان الذي يخرق بجرأة ووقاحة القواعد العامة السائدة للحياة، والتي ساهمت في التكوين التافه والمبتذل والدنيء للشخص العادى البسيط».

أما علاقة بوشكين بالقيصر، وظروف علاقته بالديسمبريين ونفيه، فقد جاءت ضمن شهادة في غاية الأهمية للأمير البولندي يولي ستروتينسكي في الحادي عشر من يناير عام ١٩٩٩ على صفحات الملحق الخاص لصحيفة «نيزافيسيمايا جازيتا» الروسية. وكانت قد نشرت للمرة الأولى فى جريدة «النهضة» (باريس فى ١٨ - ١٩ فبراير ١٩٣٨). كان الأمير يولي ستروتينسكي، المولود عام ١٨١٠، هو آخر فرع في أسرته التي كانت تنتمي إلى شرائح الأرستقراطية البولونية. في عام ١٩٢٩ التحق بفيلق سلاح الخيالة، وفي الثلاثينيات تردد الضابط الشاب أكثر من مرة على موسكو حيث كانت ابنة عمه متزوجة من الأمير ب. س. جاليتسين. وفي إحدى تلك السفرات تعرَّف إلى بوشكين وكان له معه حديث طويل. وقام بعد ذلك بوضع هذا الحديث في أحد المجلدات الكثيرة التي خصصها لمذكراته التي نشرت في مدينة كراكوف عام ١٨٧٣ تحت الاسم المستعار يولي ساسا. وبعدها بخمس سنوات مات.

**شهادة الأمير يولي ستروتينسكي**

«في إحدى تلك الحفلات المذكورة تعرَّفتُ إلى بوشكين. أما التي وضعت الأسس الأولى لمعرفتنا فهي الشاعرة كارولينا يانيش التي كان يعطيها ميتسكيفيتش دروسا في اللغة البولونية، والتي ترجمت بعض أعماله إلى اللغة الألمانية. قامت بتقديمي إلى بوشكين، وقالت بعض عبارات الإطراء كي تثير اهتمامه نحوي. ونظرا لطبيعة هذا الإنسان التي يتساوى فيها الرفق المتأدب والمجامل مع قوة الموهبة وفطنة الكبرياء الباردة (التي تميِّز إما الشخص الأحمق، وإما الشخص ذا الكبرياء الحقيقي) والتي لا تتعارض جميعها مع الرقة والرفق، استطعنا أن نتقارب بسرعة. وقد رأيتُ بنفسي كيف كان يحاول النزول إلى مستواي، ويحاول التخفيف من عبقريته وتكييفها من أجل أن أفهمه، ومن أجل أن يعطي علاقتنا طابع الدماثة واللطف والوداعة التي تميِّز علاقة رجلين متكافئين، سلافي وسلافي، إنسان وإنسان < ... >

**قال بوشكين:**

– الشباب: سخونة، حمى، تهور، مصيبة. وعادة ما تكون أفكار الشاب وإيماناته ومعتقداته نبيلة وشريفة، بل وحتى سامية بالمعنى الأخلاقي، ولكنها كثيرا ما تقود إلى الحماقة الكبرى، ومن ثم إلى الإثم الكبير. ولعلكم تعرفون ذلك الأمر بلا شك، حيث كتبوا وتحدثوا كثيرا عنه، وهو أنني ليبرالي وثوري وأمارس العمل السري. أي باختصار، أحد أشد الأعداء

الألداء لنظام الحكم الملكي، وخاصة الملكية المطلقة وحكم الفرد. أنا كنتُ فعلا كذلك. لقد أسس التاريخ اليوناني والروماني في وَعْيٍّ نموذجا عظيما وجليلا لشكل الحكم الجمهوري المزخرف بهالة الحكماء العظام، والفلاسفة، والمُشَرِّعين، والأبطال. كنتُ مؤمنا بأن شكل الحكم هذا - هو الأفضل تماما.

إن فلسفة القرن الثامن عشر التي وضعت نصب عينيها هدفا وحيدا: حرية الإنسان، وحرية الشخصية الفردية، واتجهت نحو هذا الهدف عبر النفي القاطع لجميع القوانين السياسية والاجتماعية السابقة، وانطلقت بسخرية واستهزاء شديدين من كل ما كان سائدا ومرضيا عنه طوال القرون السابقة، ومبجلا من جيل إلى جيل - فلسفة الموسوعيين تلك، التي منحت العالم أشياء كثيرة جيدة، ولكن بدون مقارنة منحته في ذات الوقت أشياء حمقاء ومجنونة أكثر... تلك الفلسفة أصابتني أنا بأضرار كثيرة. فالنظرية المتطرفة للحرية المطلقة التي لا تعترف بأي قوة أخرى فوقها لا في الأرض ولا في السماء، والتفرد الذي لا يعترف بالمبادئ والتقاليد والعادات والأسرة والشعب والدولة، والنفي التام لأي إيمان بالحياة الأخرى للروح ولكل الطقوس الدينية والأشياء الدوغمائية - كل ذلك كان يملأ رأسي بالأحلام الفوضوية البرَّاقة والمغرية، والسرابات، والمُثُل العليا التي تاه عقلي بينها وأصابه الارتباك، ومن ثم وَلَّدَ فيَّ بدوره أفكارا ونوايا حمقاء. < ... > ولكن لكل شيء نهايته، ولكل شيء أيامه. لقد غيَّر الزمن حماقة الشباب المحمومة وهراءه. وتبددت جميع التصرفات

الصبيانية، وتلاشى كل ما هو تافه وغير ضروري. لقد بدأ القلب يتحدث مع العقل بكلمات المكاشفة السماوية والمفاتحة الإلهية، وفجأة بدأ العقل، الذي استمع إلى النداء المنقذ، يثوب إلى نفسه ويصحو ويهدأ ويطمئن. وعندما نظرتُ حولي بتمعن وتوغلتُ في عمق المرئي - أدركتُ أن ما كان يبدو حقيقة إلى الآن هو مجرد باطل وضلال. أما الأهداف التي وضعتها نصب عينيَّ فقد تهددت بالجريمة والسقوط والعار! لقد أدركتُ أن الحرية المطلقة غير المحكومة بأي قوانين إلهية أو مبادئ اجتماعية، تلك الحرية التي يحلم ويثرثر بها الأطفال والمراهقون والمجانين، أمر غير ممكن. ولو كانت هذه الحرية ممكنة، فسوف تكون مدمرة لكل من الشخصية الفردية والمجتمع على حد سواء. وأنه بدون السلطة القانونية التي تسهر على الحياة العامة للشعب لِمَا كان هناك وطن أو دولة بقوتها السياسية ومجدها التاريخي وتطورها. ففي دولة مثل روسيا حيث عناصر الدولة غير المتجانسة واتساع المساحة وجهل الشعب، وجهل طبقة الملاك أيضا، تطالب الجماهير بالتأثير الموجِّه القوي - في مثل هذه الدولة يجب أن تكون السلطة مُوَحِّدة وقادرة على هرمنة الشعب وتربيته، وأن تظل لفترة طويلة ديكتاتورية، أو خاضعة لحكم الفرد الواحد < ... >. وبالطبع، فهذا الإطلاق، وهذا الحكم الفردي المطلق للفرد الواحد الذي يكون فوق القانون، لأنه هو الذي يسن هذا القانون وينفذه، لا يمكن أن يظل المعيار الوحيد الثابت الذي يحدد المستقبل من دون تغيير. إن الحكم الملكي المطلق حتما، ولا بد أن يتعرض للتغيير التدريجي، فهو لن يقتسم أبدا

سلطته بالمناصفة مع الشعب، ولكن ذلك لن يحدث هكذا بسرعة، لأنه لا يستطيع أن يحدث بسرعة، ولا يجب أن يحدث بسرعة. < ... >

وأذكُر أنه عندما أبلغوني بأمر القيصر أن أقف بين يديه، أصابني اكتئاب مفاجئ - ليس فزعا، لا! - ولكنه شيء ما شبيه بالكراهية والحقد والغضب والقرف < ... > ولكن ماذا في ذلك؟ كل تلك الأحاسيس تشتت وطارت مثل فقاقيع الصابون، تلاشت في اللاوجود مثل رؤى الأحلام، عندما ظهر لي وتحدث معي. وبدلا من الطاغية المتغطرس والحاكم الفرد الصارم والجبار، رأيتُ أمامي وجها نبيلا وهادئا تماما لحاكم يتسم بالفروسية والجمال والنبل. وبدلا من كلمات التهديد الفظة المتوحشة اللاذعة والإهانات، سمعتُ عتابا متسامحا تم التعبير عنه بشكل رقيق وعطوف، حيث قال لي الإمبراطور:

- كيف؟ أنت عدو لقيصرك؟ أنت الذي ربته روسيا ومنحته المجد؟ بوشكين، بوشكين! هذا ليس جيدا، هذا لا يجوز!

- انعقد لساني من الدهشة والقلق، وتجمدت الكلمات على شفتيَّ. صمت القيصر، وبدا لي أن صوته الرنان بقي يرن في أذنيَّ مستميلا إياي إلى الثقة والإخلاص، داعيا إلى اليقظة والثواب إلى الرشد. ومرت اللحظات وأنا لا أرد.

- لماذا لا تتكلم؟ أنا أنتظر؟! - قال القيصر ونظر إليَّ في تمعن.

- أيقظتني هذه الكلمات، وفعلت تلك النظرة فعلها أيضا. وأخيرا ثُبتُ

إلى رشدي، وأخذتُ نفسا عميقا، وقلتُ في هدوء:

- أنا مذنب، وأنتظر العقاب.

- أنا لم أعتد التسرع بالعقاب! - أجاب الإمبراطور في صرامة - لو استطعتُ أن أتفادى هذا التصرف المتطرف سأكون سعيدا. ومع ذلك فأنا أطلب الرضوخ الكامل والطاعة المخلصة لإرادتي. أنا أطلب منك أن لا تجبرني أن أكون صارما معك، وأن تساعدني لأن أكون متسامحا معك ورحيما بك. أنت لم تعترض على عتابي لك بأنك معاد لقيصرك - قل لي إذن لماذا تعاديه؟

- سامحوني جلالتكم، إذا لم أجب عن سؤالكم في الحال، لعلني أترك لكم فرصة للتفكير في أمري. أنا لم أكن أبدا عدوا لقيصري. لم أكن، على الإطلاق، عدوا للملكية.

< ... > جلالتكم - أجبتُ - بالإضافة إلى صيغة الحكم الجمهوري التي يمكن أن تعوق تحقيقها ضخامة روسيا واتساعها وعدم تجانس سكانها، توجد صيغة سياسية أخرى وهي الملكية الدستورية.

- هذه الصيغة صالحة للدول التي أصبحت متحققة بشكل نهائي - قاطعني القيصر بنبرة يقينية واثقة - وليس لتلك الدول التي ما زالت على طريق التطور والنمو. إن روسيا لم تخرج بعد من مرحلة الصراع من أجل الوجود. إنها لم تصل بعد إلى تلك الظروف التي يمكن من خلالها تطوير الحياة والثقافة الداخلية. إنها بعد لم تصل إلى موقعها السياسي المنوط

بها . إنها بعد لم تصل إلى تلك الحدود الضرورية لعظمتها وضخامتها. إنها بعد ليست ذلك الجسد الكامل المتجانس الموجود لسنوات طويلة. فهي ما زالت تتكون من مجموعة من العناصر التي لا تزال غير متوافقة مع بعضها البعض، ولا يمكن أن يقرِّبها من بعضها ويصهرها سوى الحكم الملكي الفردي - أي إرادة الملك الواحد القوية وغير المحدودة. بدون هذه الإرادة لن يوجد تطور أو هدوء، وأي هزة بسيطة يمكنها أن تهدم وتطيح بهيكل الدولة. (وبعد فترة صمت) لعلك تعتقد أنني عن طريق الملكية الدستورية في المستقبل يمكنني أن أحطِّم رأس الثعبان الثوري (هيدرا) الذي أرضعتموه أنتم ذاتكم واحتضنتموه يا أبناء روسيا؟ لعلك تعتقد أن سحر ومهابة السلطة الملكية الفردية التي منحها الرب ليَّ لا يمكنها أن تساعد على المحافظة والإبقاء على بقايا الحرس وشَكِّم وقمع الرعاع وقطَّاع الطرق وعدم السماح لهم بشق عصا الطاعة، وجعلهم دوما طوع الامتثال والطاعة، وهم الذين على استعداد دائم للاعتداء والعيث فسادا والسرقة والتخريب واستخدام العنف؟ كل تلك الأشكال لم تجرؤ على الوقوف ضدي! لم تجرؤ! لأن القيصر هو الحاكم الواحد ولأن هذه الأشكال تعرف جيدا أنني أدرك حجم المسؤولية الضخمة الملقاة على عاتقي، وأنني لستُ ذلك الإنسان الذي لا يمتلك إرادة أو عادات وتقاليد قديمة وراسخة، والذي يمكن أن تطيح به العواصف أو تخيفه الرعود!

عندما كان يتحدث، بدا ذلك الإحساس الذاتي بالعظمة والقوة وكأنه قد صنع منه إنسانا ضخما للغاية. كان وجهه صارما وعيناه تلمعان. ولكن

ذلك لم يكن ينم عن الغضب، لا! كان في تلك اللحظة غير غاضب، ولكنه كان يجرب < ... > أو يقيس قوة المقاومة، ويصارعها ذهنيا. وبالفعل انتصر عليها. كان لديه كبرياؤه، وفي ذات الوقت سعيدا من الداخل. ولكن سرعان ما هدأت ملامح وجهه ولانت، وانسحب البريق من عينيه. وراح مرة أخرى يتجوَّل في الغرفة، ثم توقَّف ثانية أمامي، وقال:

- أنت لم تقل كل شيء بعد. أنت بعد لم تتظف تماما أفكارك من الحماقات والضلالات. أليس من الممكن أن يكون هناك شيء ما يرزح على قلبك، يقلقه ويعذبه؟ اعترف بشجاعة. أنا أريد سماعك، وسأستمع إليك.

- جلالتكم - قلتُ له برقة وتعاطف - أنتم حطمتم بالفعل رأس هيدرا الثورية. لقد قمتم بإنجاز عظيم، من يجادل في ذلك؟ بيد أنه... هناك هيدرا أخرى، وحش بشع ومدمر. وهو الذي يجب أن تصارعوه وتتاضلوا ضده، وتقضون عليه، لأنه سيقضي عليكم إذا لم تفعلوا ذلك.

- تحدث بشكل أوضح! - قاطعني القيصر وهو مستعد لالتقاط كل فكرة من أفكاري - هذه الـ «هيدرا»، هذا الوحش - قلتُ مواصلا حديثي - هو استبداد وتعسُّف السلطات الإدارية، فساد الموظفين وشراء ذمم القضاة. ستبقى رقبة روسيا تحت منجل هذه الـ «هيدرا» وابتزازاتها وعنفها ونهبها، وهي التي إلى وقتنا هذا تستهزئ حتى بالسلطة العليا. لم يبق هناك مكان واحد في الفضاء الشاسع لهذه الدولة لم تمتد إليه يد هذا

الوحش المفترس < ... > فما المدهش هنا < ... > إذا قامت الجماهير الغاضبة والمُهانة والمُعَذَّبَة برفع راية المقاومة وإشعال النيران، والعصيان والمظاهرات والاضطرابات من أجل تدمير ما هو موجود، وإقامة ما يجب إقامته: بدلا من الجور والظلم - الحرية، وبدلا من العنف والقمع - الأمن، وبدلا من المأجورية - الأخلاق، وبدلا من التعسف والاستبداد - القانون الذي يعلو فوق الجميع، ويتساوى الكل أمامه! أنتم، جلالتكم، يمكنكم أن تدينوا تطور مثل هذه الأفكار وامتداداتها وعدم قانونية أو شرعية الوسائل المُتَخَذَة لتحقيقها عن طريق الجسارة والوقاحة المفرطة في استخدام تلك الوسائل، ولكنكم لا تستطيعون ألا تعترفوا بأن فيها انفعالا نبيلا! أنتم تستطيعون وتملكون الحق في معاقبة المذنبين الذين يريدون أن يمرغوا عرش أسرة رومانوف، ولكنني واثق تمام الثقة بأنكم حتى عندما تعاقبونهم، فأنتم في قرارة نفسكم لا ترفضون التعاطف معهم والإحساس بهم، واحترامهم! أنا واثق أنه إذا كان القيصر يمكنه أن يعاقب، فإن الإنسان بداخله سوف يصفح ويسامح!

- كلماتك جريئة وشجاعة! - قال القيصر في صرامة، ولكن من دون غضب - إذن فأنت راض وموافق على الاضطرابات والعصيان؟ وتبرر التآمر ضد الدولة؟ والاعتداء على حياة القيصر؟

- أوه، لا، جلالتكم - صحتُ من شدة القلق - لقد بررتُ فقط هدف الفكرة وليس وسيلتها! لدى جلالتكم القدرة على النفاذ إلى النفس - فأرجو أن تتكرموا بالنفاذ إلى نفسي وسوف تقتنعون بأن كل ما فيها نقي

وواضح! ففي هذه النفس لا يعشش الانفعال الشرير أو النوايا السيئة، ولا تتوارى خلفها الجريمة!

- أريد أن أصدِّق أن الأمر كذلك فعلا، وسوف أُصَدِّق! - قال القيصر بشكل هادئ وأكثر رقة ولطفا - ليس لديك أي نقيصة، لا في نبل الأفكار ولا في الأحاسيس، ولكن ينقصك حسن التقدير والحصافة والخبرة والتعليل والرسوخ < ... > يلزمنا توحيد جميع القوى الروحية العليا للدولة في فكرة واحدة عظيمة ورائدة، يلزمنا توحيد جميع الجهود في الحرص والغيرة على سعي واحد محمود يستحق الثناء من أجل إشاعة احترام الذات بين أفراد الشعب، وترسيخ الإحساس بالإخلاص والشرف في المجتمع. فليتحد حولي كل الناس المخلصين والقادرين، وليثقوا بي، ويسيروا بثقة في الذات وبسلام إلى هناك حيث أقودهم - وسوف تُهْزَم هيدرا! وسوف تنهار وتتلاشى الغرغرينا التي تمزق أوصال روسيا! لأن الانتصار لا يتحقق إلا بالجهود المتكاتفة، والإنقاذ لا يحدث إلا بوفاق القلوب النبيلة! لم يعد هناك شيء بخصوصك يا بوشكين... أنت حر طليق! سأنسى الماضي - بل وقد نسيته فعلا! أنا لا أرى أمامي مجرما في حق الدولة - لا أرى سوى إنسانا يملك قلبا وموهبة، أرى مغني الشعب ومُنْشِد مجده الذي يحمل رسالة سامية - من أجل أن يلهب أرواح المخلصين، ومن أجل الإنجازات العظيمة! والآن... يمكنك أن تتصرف! وحيثما تذهب، وحيثما تعيش (إذ إن الاختيار يتوقف عليك أنت)، تَذَكَّر ما قلتُه لك، وكيف تصرفتُ معك. اخدم الوطن بأفكارك وبكلمتك وبقلمك. اكتب من أجل المعاصرين، ومن أجل

الأحفاد. اكتب بكل ما تملك من وحي وإبداع وبحرية مطلقة، لأن رقيبك سوف يكون، أنا!

هذا هو جوهر حكاية بوشكين. أغلب الموضوعات المهمة انطبعت بقوة في ذاكرتي، وأوردتها تقريبا بالحرف الواحد. فهل أعماله التي جاءت بعد ذلك حصلت فعلا على تصريح من القيصر، أم أنها رُفِضَت بشكل طبيعي من قبل نقاد لجنة الرقابة؟! لا يمكنني أن أؤكد بشكل قاطع. لم يطرأ على ذهني أن أسأل بوشكين عن ذلك. وسوف يفهم القارئ ذلك بسهولة في حالة إذا ما تكرَّم وتَذَكَّر أنني آنذاك كنتُ صغير السن، وأن هناك موضوعات أخرى أكثر أهمية كانت تجذب فضولي وقتها».

هنا نصل إلى النقطة الأخيرة التي يلتقي فيها مصير الشاعر بوشكين مع مصير بطل روايته لينسكي. إنها تدور حول مكائد ونميمة المجتمع الأرستقراطي والمنافسات العاطفية والغيرة. والمدهش أن بوشكين أنهى روايته الشعرية «يفغيني أونيغين» ونشرها في طبعتها الكاملة في عام ١٨٣٣، وذلك في نفس العام الذي وصل فيه دانتيس إلى بطرسبورغ. أما قصة حب الأخير لزوجة الشاعر ناتاليا جونتشاروفا فقد بدأت في خريف عام ١٨٣٥. كل ذلك يعني أن الشاعر الروسي ألكسندر بوشكين تنبأ بعبقرية غير مسبوقة ليس فقط بموته، وإنما أيضا بطريقة هذا الموت عَبْرَ شخصية «لينسكي» على يد «يفغيني أونيغين» في الرواية.

في المرحلة السوفييتية، كان موضوع مبارزة بوشكين يوجد في قبضة

أيديولوجية قوية لوسائل الإعلام. وفي سنوات العشرينيات والثلاثينيات، أصبح من السائد أن بوشكين كان ضحية القيصر والدائرة الثالثة، وأن زوجة الشاعر كانت امرأة فارغة ومتهورة. وبعد سنوات الحرب العالمية الثانية أصبح بوشكين ضحية الأجانب الأُمَمِيين، وناتاليا نيكولايفنا - أمًّا وزوجة مثالية، فهل من المعقول أن تعشق شخصا آخر، زد على ذلك أنه فرنسي؟ وبشكل عام، فقد أرادت السلطة أن ترغم بوشكين على خدمة نفسه، بينما كان بوشكين الوحيد، وكما هو معروف، يخدم الأدب الروسي وليس السلطة.

في ٨ سبتمبر عام ١٨٣٣ وصل إلى سانت بطرسبورغ نبيل الإليزيه وصاحب العقيدة الملكية الراسخة جورج دانتيس ومعه وصيِّه المبعوث الهولندي في البلاط الروسي لويس جيكيرن. جاء من أجل «اصطياد السعادة والرتبة»، ومن أجل أن يترقَّى في منصبه بسرعة. ويكتب بوشكين في ٣٠ أكتوبر إلى زوجته من رحلته في بولدين: «يبدو لي أنكِ بدأتِ تسيرين على طريق التدلل والغناجة. اسمعي ليس عبثا أن الغنج والدلال قد أصبحا خارج الموضة، بل ويعتبران من علامات الحماقة وخفة العقل، وليس فيهما ما يجدي. فعندما يوجد الطست أو المذود فلابد أن توجد الخنازير. لماذا تهتمين بالرجال الذين يغازلونك؟ أنتِ لا تعرفين على من ستعثرين، ومن ستصادفين. اقرئي حكاية أ. إيزمايلوف عن فوما وكوزما. لقد قام فوما بإطعام كوزما كافيارا وفسيخا، فأخذ كوزما بعد ذلك يطلب الشرب، ولكن فوما لم يعطه. فراح كوزما يضرب فوما ضرب اللئام. من

ذلك خرج الشاعر بتلك العظة الأخلاقية: أيتها الجميلة، لا تطعمين أحدا فسيخا إذا لم تكوني ترغبين في إعطائه ماء، وغير ذلك فمن الممكن أن تصطدمين بكوزما... أنا لستُ غيورا، نعم، وأعرف أنكِ لن تتحدرين إلى ما هو شديد الوطأة، ولكنك تعرفين كم لا أحب كل ما يفوح برائحة الآنسات الموسكوفيات، وكل ما هو محتدم، وكل ما هو مستفز.

وبالطبع فهذا الحديث لا يمكن أن يكون دائرا في هذا الوقت حول دانتيس. فبعد عدة أشهر فقط، وتحديدا في فبراير ١٨٣٤، سوف يصدر أمر إلى فيلق سلاح الفرسان بإدراجه في الفيلق برتبة حامل علم. في ذلك الوقت يسجل بوشكين ملاحظة في دفتر يومياته: «في ٢٦ يناير ... سوف يتم قبول كل من البارون دانتيس والماركيز دي بينا، اثنان من مناصري الحكم الملكي ضد الثورة الفرنسية، في الحرس وكضباط مباشرة. الحرس يضج بعدم الارتياح».

لقد أصبح دانتيس من رواد بيت أسرة بوشكين في يناير ١٨٣٦. ومن الواضح أن قصة علاقته مع جونتشاروفا كان قد لفتت الأنظار، حيث سجلت فريلينا ميردير ملاحظة في دفتر يومياتها: «٥ فبراير ١٨٣٦، الأربعاء. ذهبتُ الأميرة جاليتسينا إلى حفلة الرقص عند الأميرة بوتيرا ... رأيتُ دانتيس بين الجمهور، ولكنه لم يلحظني، من الممكن ببساطة أنه كان مشغولا ولم يكن لديه الوقت لذلك. بدا لي أن عينيه كانت تعبران عن توتر - كان يبحث عن أحد ما بعينيه، وفجأة اتجه إلى أحد الأبواب واختفى في الصالة المجاورة. وبعد دقيقة ظهر مرة أخرى، ولكنه كان متأبطا

ذراع السيدة بوشكينا. وتناهى إلى سمعي: «لنذهب - لعلكم تفكرون في ذلك - أنا لا أصدق ذلك - أنتم لم تكونوا تنوون عمل ذلك...». العبارة التي تضمنت هذه الكلمات لم تترك لديَّ شكا في صحة مراقبتي وفي صحة النتائج التي خرجتُ بها في السابق - إنهما يحبان بعضهما البعض بجنون! وبعد أن قضينا في حفلة الرقص ما لا يزيد عن نصف الساعة، اتجهنا نحو باب الخروج. كان البارون يرقص المازوركا مع السيدة بوشكينا، وكم بدا كل منهما سعيدا في تلك اللحظة!...».

من ذلك يتضح أن فريلينا ميردير كانت تراقب العاشقين الآن وفي السابق أيضا. معنى ذلك أن الإشاعات كان من الممكن أن تكون قد ظهرت فى المجتمع في شهر يناير. ليس هناك في ذلك ما يثير الدهشة: الجميلة رقم (١)، والشاب رقم (١) أيضا، الذي يجاري أحدث متطلبات الموضة، ظهرا معا للعيان. وكان ذلك يمكنه أن يسمم حياة الشاعر التي لم تكن سهلة حتى بدون ذلك.

والآن لدينا أيضا فقرتان من رسائل دانتيس إلى والده بالتبني لويس جيكيرن.

«بطرسبورغ، ١٤ فبراير ١٨٣٦.

صديقي العزيز

لقد انتهى الكرنفال، وانتهى معه جزء من عذاباتي. في الحقيقة، يبدو لي أنني قد أصبحتُ هادئا بعض الشيء، لأنني لم أعد أراها يوميا. والآن لم يعد من الممكن لأي شخص عابر أن يتناول يدها، ويحيط خصرها بيده، ويرقص ويتحدث معها مثلما أفعل أنا: ومع ذلك فهم أفضل مني لأن ضميرهم أنقى. من الحماقة أن أتحدث عن ذلك، ولكن يتضح - لا يمكنني أن أصدق أبدا - أنها الغيرة، وأنني باستمرار في حالة من التوتر، تلك الحالة التي جعلت مني شخصا تعيسا. بالإضافة إلى ذلك، ففي المرة الأخيرة حينما التقينا، تكاشفنا وتعاتبنا. كانت هذه المكاشفة فظيعة جدا، ولكنها جاءت لصالحي. إنهم في العادة يرون فيها امرأة قليلة العقل، ولكنني لا أدري، لعل الحب يجعل الإنسان متعقلا. بيد أنه كان من الصعب عليَّ أن أتصرف بحصافة ولباقة وتعقل أكثر منها أثناء هذا الحديث. وكان من الصعب عليَّ تحمله، إذ إنه دار، ليس أكثر ولا أقل، عن رفضها للإنسان الذي يحبها ويعشقها ويستعطفها، وعن عدم إهمالها لواجبها والاستهانة به من أجله: لقد شرحتْ لي وضعها في ظل تلك التضحية، وطلبتْ مني أن أرحمها. طلبت بتلك البساطة والسذاجة حتى أنني كنتُ مصعوقا تماما، ولا أجد كلمة واحدة أرد بها. لو تعرف كيف كانت تواسيني وتعزيني وهي ترى حالتي السيئة وكيف أختنق وأنهار، وكيف قالت: «أنا أحبكم كما لم أحب أبدا، ولكن لا تطلبوا أكثر من قلبي، لأن كل ما تبقى غير ذلك ليس

ملكا لي، بيد أنه لا يمكنني أن أكون سعيدة إلا بوفائي بجميع التزاماتي. ارحموني، وأحبوني دائما مثلما تحبونني الآن، وسوف يكون حبي مكافأة لكم» . هل تعرف، لو كنا وحدنا، لركعتُ على قدميها وقَبَّلتهما . وأصدقك القول، إن حبي لها منذ ذلك الحين قد صار أشد وأقوى. والآن فقط صارت بالنسبة لي شيئا آخر.

«بطرسبورغ، ٦ مارس ١٨٣٦ .

صديقي العزيز

في هذه المرة، والحمد لله، انتصرت على نفسي. ومن الهوى الجامح الذي حرقني طوال ستة أشهر، والذي تحدثتُ عنه في جميع رسائلي إليك، لم يتبق فيَّ إلا مجرد إعجاب وانبهار هادئ بالمخلوق الذي أرغم قلبي على النبض بشدة.. أنا واثق بأن هناك رجالا فقدوا عقولهم، فهي في هذا الإطار فاتنة جدا من أجل ذلك، ولكن أن تستمع إليهم، فلا! فهي لم تحب أبدا أحدا أكثر مني. وفي الفترة الأخيرة كانت هناك الفرص الكافية من أجل أن تمنحني كل شيء - ولكن ماذا يا صديقي العزيز - لم يكن هناك أي شيء إطلاقا! أي شيء في الحياة ! كانت أقوى مني بكثير، وطلبت مني أكثر من عشرين مرة أن أرحمها هي وأولادها ومستقبلها، وكانت في غاية الروعة والبهاء في تلك اللحظات (فليست أي امرأة بمقدورها أن تكون كذلك)، فلو كانت تريد أن يتركوها وشأنها لتصرَّفتْ بطريقة أخرى تماما، ألم أقل

لك إنها كانت في غاية الروعة والبهاء لدرجة أنه من الممكن التعامل معها كملاك هابط من السماء. ولعله لا يوجد في العالم ذلك الرجل الذي يمكنه ألا يوافقها في تلك اللحظة، فقد كانت تستحق بالفعل احتراما عظيما. وهكذا، فقد ظلتْ طاهرة نقية، ويمكنها ألا تطأطئ رأسها أمام العالم كله. ولا توجد أي امرأة يمكنها أن تتصرف على هذا النحو... وهناك أيضا موقف آخر غريب: في الوقت الذي لم أكن قد تسلَّمتُ فيه رسالتك بعد، لم يكن هناك أحد يذكر حتى اسمها أمامي. ولكن بمجرد وصول رسالتك، وكأن ذلك تأكيد لكل تخميناتك - في نفس ذلك المساء ذهبنا إلى الرقص في القصر الملكي، وراح سمو الأمير - الوريث يمزح معي بخصوصها، وهذا هو السبب الذي جعلني وقتها أستنتج أن هناك من ينمون عليَّ ».

على هذا النحو، فقد راح هوى دانتيس نحو بوشكينا يحرقه طوال ستة أشهر (تاريخ الرسالة، ٦ مارس ١٨٣٦)، ومن الواضح أن قصة الحب بدأت في سبتمبر ١٨٣٥.

وهكذا، فبعد أن أجابت ناتاليا نيكولايفنا على حب دانتيس («أنا أحبكم كما لم أحب أبدا...»)، بقيت طاهرة ونقية. لقد منحته قلبها، ولكنها طلبت منه أن يرحمها. ودانتيس يكتب عن ذلك في ١٤ فبراير. في ذاك الوقت كانت ناتاليا نيكولايفنا حاملا في ستة أشهر (وسوف تلد بعد ذلك فتاة باسم ناتاليا في ٢٣ مايو). إن دانتيس لا يكتب عن ذلك، ومن المشكوك فيه أنه كان يعرف. ولكن، مع ذلك، فناتاليا نيكولايفنا كانت أُمًّا جيدة...

في ذلك الوقت امتلأ المجتمع بالشائعات. وعلى الرغم من أن الشاب المحترق شوقا لا يريد الحط من قدر المرأة التي يحبها (يكتب هو نفسه عن ذلك)، تنتشر قصة حبهما في يناير - فبراير ١٨٣٦. وحول ذلك يمزح سمو الأمير - الوريث مع دانتيس. وحول ذلك تكتب فريلينا ميردير في دفتر يومياتها. وتدور الشائعات في الصالونات وغرف الجلوس. تلك هي الخلفية التي انفجرت عليها الأزمة الروحية للشاعر، والتي استدعت ثلاث مبارزات مع خليوستين، وسوللوجوب، وريبينين، وذلك حينما - على ضوء كلمات سوللوجوب، كان بوشكين «يبحث عن الموت».

فى صيف عام ١٨٣٦، ينقلون أسرة بوشكين إلى البيت الصيفي في كامينو أستروفسكي، وفي ١٢ سبتمبر يعودون إلى بطرسبورغ في الشقة (الأخيرة) الجديدة بشارع مويكا. وفي أغسطس، عندما كانت أسرة بوشكين لا تزال تعيش في البيت الصيفي، أنهى فيلق حرس الفرسان مناوراته وتوقَّف في شقق بمنطقة نوفي دريفني. وتبدأ من جديد حفلات الرقص. يظهر دانتيس في بيت آل بوشكين، ويلتقي مع زوجة بوشكين. وبعد تلك الأشهر التي لم يلتقيا فيها، استطاع دانتيس أن يجعل يكاترينا جونتشاروفا[٢] والأميرة ماريا باریاتینسکایا تحبانه. وهذه التفاصيل موجودة في دفتر يوميات الأميرة باریاتینسکایا. ولكن ليس من المعروف هل كانت ناتاليا نيكولايفنا جونتشازروفا زوجة بوشكين تعرف شيئا عن

(٢) يكاترينا نيكولايفنا جونتشاروفا الأخت الشقيقة لزوجة بوشكين ناتاليا نيكولايفنا جونتشاروفا، التي أصبحت بوشكينا بعد زواجها من الشاعر.

العلاقة مع الأميرة باریاتینسکایا أم لا، لكنها كانت تغار على دانتيس من أختها. وعلى الرغم من الانتقال إلى بطرسبورغ واستمرار لقاءات دانتيس وناتاليا نيكولايفنا، إلا أن العلاقة تبدأ بالتغيُّر في خريف ١٨٣٦.

وفي ١٦ أكتوبر جرى حوار بين دانتيس وناتاليا نيكولايفنا بوشكينا بمنزل فيرا فيودروفنا فيازيمسكايا، واستمر ما يقرب من حوالى الساعة. وعلى ضوء رد فعل دانتيس، فقد رفضت ناتاليا نيكولايفنا توسلاته بإقامة «علاقات أكثر قربا». ودانتيس في يأس، ويكاد يفقد عقله. وقد وصل إلى تلك الدرجة من اليأس، إلى ذلك الحد الذي لا يستطيع الإنسان بعد أن يتحكم في نفسه ويصبح معرَّضا لارتكاب أي فعل مجنون.

لقد نسي حتى ما كان وما ظل أهم شيء بالنسبة له - نسي المستقبل والمنصب. وفي حفلة رقص لدى المبعوث البافاري ليرخينفيلد، وخفية عن يكاترينا نيكولايفنا، يتحدث مع أختها ناتاليا نيكولايفنا، ويقنعها بأن تحبه. إن منطق دانتيس بسيط: إذا كانت المرأة تقول إنها تحب «كما لم تحب أبدا»، فمعنى ذلك أنه من الضروري أن تكون هناك علاقة تقارب».

قامت ناتاليا نيكولايفنا بمكاشفة زوجها بوشكين وأطلعته على ملاحقات دانتيس فقط في ٤ نوفمبر وذلك بعد استلام بوشكين رسالة هجاء غير مُوَقَّعَة. ومن الضروري وقتها أنها حكت لبوشكين عن لقائها مع دانتيس عند إيداليًّا بوليتيكا في ٢ نوفمبر، أي قبل ذلك بيومين. فقد قامت بوليتيكا بترتيب خدعة واستدعت بوشكينا إلى شقتها حيث كان

ينتظر دانتيس، وراح يتوسل إليها بأن تستسلم له. ومن الواضح أنها كانت آخر محاولة فاشلة أملاها الشوق الحارق الذي استولى على دانتيس.

تدَخَّل الأب جيكيرن وتحدث مع ناتاليا نيكولايفنا بوشكينا في حفل الاستقبال عند ليرخينفيلد للتقريب بينها وبين ابنه بالتبني دانتيس. وسرعان ما مرض الأخير، واستمر مرضه طوال أسبوع كامل، من ٢٠ إلى ٢٧ أكتوبر. ويكتب بوشكين، في رسالة لم ترسل، بتاريخ ٢١ نوفمبر ١٨٣٦ إلى جيكيرن الأب: «أنتم ممثل الشخصية المتوَّجة، مارستم بشكل أبوي مهنة بشعة لابنكم غير الشرعي، أو ذلك المدعو ابنكم. لقد قمتم أنتم بتوجيه تصرفات هذا الصبي. أنتم الذين أمليتم عليه كل تلك الدناءات التي نشرها، وكل تلك الترهات والسخافات التي تجرَّأ وكتبها. ومثل عجوز وقح وقليل الحياء تربصتم لزوجتي في جميع الأركان والزوايا كي تحدثوها عن ابنكم. وعندما أصابه مرض الزهري، وكان من الضروري أن يلزم المنزل للعلاج، قلتم - أنتم أيها الإنسان عديم الشرف - أنه يموت بسبب حبه لها. وهمهمتم إليها: أعيدوا إليَّ ابني».

لقد عرف بوشكين من زوجته عن حديث جيكيرن - الأب معها عند ليرخينفيلد. وهذا الحديث دار أثناء مرض دانتيس. لقد أخطأ بوشكين التقدير في شيء واحد فقط. فلم يكن جيكيرن هو الذي وجَّه تصرفات دانتيس، وإنما العكس هو الذي حدث، إذ قام دانتيس بتقديم النصائح والمقترحات إلى جيكيرن.

فما هي المشاعر الحقيقية لدى دانتيس في خريف عام ١٨٣٦؟ من الصعب أن نسميها الآن ذلك «الشوق السامي والعظيم» (على حد تعبير بوشكين)، الذي كان دانتيس يكنه منذ عام مضى. أما الآن فلا يوجد سوى جنون الكبرياء المجروح، والسعي بأي وسيلة، بما في ذلك أحط الوسائل، للوصول إلى الهدف. في صباح ٤ نوفمبر حمل البريد إلى بوشكين، وإلى ستة من أصدقائه المشاركين معه في حلقة كارامزينسكي، رسالة هجاء غير موقعة تفيد بأن بوشكين قد نمت له قرون. وكان دانتيس قد أصبح ضيفا مترددا على هذه الحلقة منذ عام ١٨٣٦). في نفس ذلك اليوم أرسل بوشكين دعوة للمبارزة. وطلب تفسيرا من زوجته.

لم تحك ناتاليا نيكولايفنا لبوشكين عن اللقاء مع جيكيرن عند المبعوث البافاري فقط، وإنما اعترفت أيضا بأنها تسلَّمت رسائل دانتيس وحفظتها. وحقيقة استلام الرسائل لم تترك أي شك في طابع العلاقة. في هذا اليوم عرف بوشكين قصة حب الزوجة التي كانت قد بدأت في خريف العام الماضي. وأصبحت حالة ناتاليا نيكولايفنا - أهدأ، وحالة بوشكين - أسوأ. لقد تأكد بوشكين من أن زوجته أحبت شخصا آخر، ولم يكن يستطيع التحدث في هذا الأمر مع أي إنسان، حتى مع أقرب الأصدقاء. إن التراجيديا التي جرت يوم ٤ نوفمبر لم تكن أبدا في أن بوشكين قد تاه وتخبَّط في التخمينات عمن قام بتأليف الرسائل الهجائية الكيدية. ففي هذا اليوم انهارت القلعة الأسرية التي كانت تحمي بوشكين. في هذا اليوم كان مجروحا في القلب (قبل أن يُجرَح في المبارزة)، وهذا الجرح ظل

ينزف حتى الموت. إن الدعوة إلى المبارزة، المرسلة إلى دانتيس، كانت ردا ليس على رسائل الهجاء الكيدية، وإنما على رسائل دانتيس إلى ناتاليا نيكولايفنا، وعلى اعتراف الزوجة.

إن كل ما جرى بين يوم ٤ نوفمبر و ٢٧ يناير عام ١٨٣٧ قد دُرِسَ بالتفصيل. لقد أخذ جيكيرن - الأب وأصدقاء بوشكين، وفي مقدمتهم جوكوفسكي، يبذلون كل ما بوسعهم كي يؤجلوا هذه المبارزة تمهيدا لإلغائها تماما. وبالنسبة للدبلوماسي الهولندي جيكيرن، فأي مصير أو نتيجة للمبارزة سيكون مضرا وقاتلا له. ومن ثم فهو يتعلَّق بالقشة الأخيرة، بإعلانه لجوكوفسكي بأن ابنه يحب يكاترينا نيكولايفنا (أخت زوجة بوشكين) ومع إعلان خطوبته لها بمجرد أن يقوم بوشكين بسحب دعوته للمبارزة، وعدم الإعلان عنها لأحد. ويبدأ جوكوفسكي في إقناع بوشكين بحسن نوايا جيكيرن، ولكن كان من الصعب إقناع بوشكين لأنه كان يعرف الحقيقة. ويكتب جوكوفسكي ملاحظة في دفتر يومياته: «غضبه وثورته»، «دموعه». إن جوكوفسكي لا يفهم غضب بوشكين وثورته، ولا دموعه. والآن، عندما يصبح معروفا أن دانتيس يحب يكاترينا نيكولايفنا، وأن جيكيرن يعطي الموافقة على هذا الزواج - الآن، يبدو أن جميع الأسباب الداعية إلى المبارزة قد سقطت.

في ذاك الوقت، وبعده أيضا، لم يكن أصدقاء بوشكين يفهمونه، ولم يكونوا يعرفون ما يحتدم في نفسه. ولم يستطع بوشكين أيضا أن يوضح لهم أي شيء. التوضيح - كان يعني وصم زوجته بالعار، ووصمه هو ذاته.

كان عليه أن يتصرَّف وحده في مصيبته. وسحب بوشكين دعوته للمبارزة رغما عن إرادته. وفي ١٧ نوفمبر بالحفل الراقص عند آل سالتيكوف يتم إعلان خطوبة دانتيس ويكاترينا جونتشاروفا.

وانفجر هذا العالم الهش في ٢١ نوفمبر. ولو لم يحدث تدخل سوللوجوب وجوكوفسكي، لأرسل بوشكين في هذا اليوم رسالة في غاية المهانة إلى جيكيرن، والتي لِمَا كان بعدها مفر من المبارزة في شهر نوفمبر. ولكنهم كانوا يقيدون يديه. وفي ٢٣ نوفمبر يأخذ القيصر، الذي قام جوكوفسكي بإبلاغه، وعدا من بوشكين بأنه لن يتخذ أي إجراء بدون علمه. والآن أصبح بوشكين مقيَّد اليدين والقدمين.

تم زواج دانتيس ويكاترينا جونتشاروفا يوم ١٠ يناير ١٨٣٧. واطمأن أصدقاء بوشكين متصوِّرين أن الغمة قد زالت، إذ إنه الآن بعد زواج دانتيس تصبح دعوة بوشكين الجديدة لعديله إلى المبارزة غير مبررة وغير ممكنة. وهكذا تحررت يدا بوشكين.

في ٢٥ يناير يبعث بوشكين برسالة مهينة إلى جيكيرن - الأب. وهي نفسها الرسالة المؤرخة في ٢١ نوفمبر ١٨٣٦، والتي لم يرسلها بوشكين بسبب تدخُّل جوكوفسكي. الآن أصبحت المبارزة أمرا حتميا لا مفر منه. وفي يوم الأربعاء ٢٧ يناير اتجه بوشكين مع شاهده دانزاس في الخفاء، من خلف محل الحلوجي فولف، عند زاوية شارعي نيفيسكي ومويكا، صوب مكان المبارزة عند النهر الأسود. وفي المساء حملوا بوشكين الجريح

جرحا مميتا إلى غرفته. وكانت آخر الكلمات التي قالها لطبيبه الدكتور دال: «طبعا، هي الحياة!... أتنفس بصعوبة، أختنق». وانتهت حياة المُعَذَّب، لتبدأ الآن فقط - فقط حياة الشاعر.

إن بعض المعاصرين آنذاك خمنوا حالة بوشكين، وطبعا دون أن يعرفوا الأسباب وقتها. فسوللوجوب يكتب في مذكراته: «كان الجميع يريدون إبقاء بوشكين، وكان بوشكين هو الوحيد الذي لم يكن يريد ذلك... لقد راح، عبر شخصية دانتيس، يبحث عن الموت أو التنكيل بعلية القوم في المجتمع كله». أما بافليشيف، زوج ابنة بوشكين، فقد قال على نحو أكثر صراحة: «لقد راح يبحث عن الموت بسعادة، وكان سيظل تعيسا لو بقي حيا».

# يفغيني أونيغين

## النص الأوبرالي

ألكسندر بوشكين - بيوتر تشايكوفسكي

دار النشر الموسيقية الحكومية

الطبعة الثانية

موسكو ١٩٦٣

نص الأوبرا

المحرر

ي. أوفاروفا

المحرر التقني

ل. فينوغرادوفا

طبع في ١٣ يوليو ١٩٦٣

عدد النسخ ٢٤ ألف نسخة

مطبعة موسكو رقم ٦

# مقدمة

مكتبة

## ي. أوفاروفا

حينما قرر المؤلف الروسي بيوتر تشايكوفسكي كتابة أوبرا «يفغيني أونيغين» عام ١٨٧٧، كان هناك عدد كبير من المتحفظين على ذلك، ممن شككوا في صلاحية هذه الرواية الشعرية للأوبرا. بل إن الفكرة التي طرحتها عليه المغنية الشهيرة ي. ا. لافروفسكوي بوضع رواية أليكساندر بوشكين الشعرية «يفغيني أونيغين» في قالب الأوبرا، وكتابة الموسيقى للنص الشعري، بدت للوهلة الاولى «فجة»، لكنه في اليوم التالي وجد الفكرة محتملة، واستهوته الفكرة، وبدأ ليلتها في وضع السيناريو للأوبرا الجديدة، بمساعدة كاتب السيناريو الهاوي شديد الموهبة ك.س. شيلوفسكي، ثم بدأ تشايكوفسكي على الفور في كتابة الموسيقى للنص الأوبرالي. كتب تشايكوفسكي اسكتشات الأوبرا صيف عام ١٨٧٧، وانتهى من التوزيع الأوركسترالي في يناير ١٨٧٨.

لقد عمل المؤلف الموسيقي على الأوبرا، على حد تعبيره: «باهتمام بالغ، وحب لموضوع الأوبرا، وشخصياتها»، لكنه في الوقت نفسه كان يعلم، أنها «لن تنال قسطا كبيرا من النجاح على خشبة المسرح»، فكان يقول: «إنني أعتقد أن الأوبرا لن تحظى بنجاح جماهيري ولن تلاقي اهتماما جماهيريا واسعا، فموضوع الأوبرا بسيط بلا أي مؤثرات مسرحية، أو موسيقية، بل إن الأوبرا على العكس تفتقد أي تأثير بلمعان المؤثرات».

لم يطلق تشايكوفسكي على «يفغيني أونيغين» تسمية «أوبرا» بل أطلق عليها «مشاهد شاعرية»، وخصصها لطلبة كونسيرفاتوار موسكو

لأدائها: «...من وجهة النظر العملية، فإن هذه المجموعة الرائعة من الموسيقيين التي يقودها نيكولاي روبينشتين، ويعمل معها سامارين في عروض الكونسيرفاتوار المختلفة، فإنني أميل إلى عرض الأوبرا هنا في الكونسيرفاتوار أكثر من عرضها على مسرح كبير، حتى ولو كان في بطرسبورغ... لكن الأهم، أن العمل في الكونسيرفاتوار لن تتخلله تلك النمطية القبيحة القاتلة، والعبث والمفارقات التاريخية الواضحة للعيان التي يشتهر بها المسرح المحترف».

عرضت «يفغيني أونيغين» للمرة الأولى بمجهودات طلبة الكونسيرفاتوار في موسكو في ٢٩ مارس عام ١٨٧٩، حيث لعب أدوار البطولة في الأوبرا:

تاتيانا: م. كليمينتوفا

أولغا: ا. ليفيتسكايا

أونيغين: س. غيليف

لينسكي: م. ميدفيديف

غريمين: ف. ماخالوف

وقاد الأوركسترا ن.غ. روبينشتين، وأخرجها للمسرح ي.ف. سامارين.

كان النجاح متواضعا. نالت الأوبرا (المشاهد الشاعرية) تقدير البعض. يقول تشايكوفسكي: «على الرغم من أن نيكولاي غريغوريفيتش (روبينشتين) بخيل في إطراءاته، فإنه قال لي إنه يحب هذه الموسيقى. كما أراد تانييف أن يعبر عن تعاطفه بعد الفصل الأول، إلا أنه انفجر باكيا». آخرون لم تعجبهم الأوبرا، بما في ذلك معلم تشايكوفسكي، أنطون روبينشتين، الذي

لم يفهم «أونيغين» وقتها، وكان معظم النقد الموجه من الصحافة مثيرا للضحك. كان من الضروري أن يمر بعض الوقت، حتى يحصل ذلك العمل على التقدير الذي يستحقه من المستمعين، فساعد على ذلك نشر المدونة الموسيقية للغناء وآلة البيانو للناشر ب. ي. يورغينسون.

بدأت «يفغيني أونيغين» الحصول على شهرتها، وفي عام ١٨٨١، عرضت على خشبة مسرح البولشوي في موسكو، ثم في عام ١٨٨٤ على خشبة مسرح المارينسكي في بطرسبورغ، وكذلك ظهرت الأوبرا على بعض المسارح الريفية. حتى أن الكثير من أساطين الغناء في ذلك الوقت غنوا في «أونيغين»، فجسّد دور «أونيغين» ب. خوخلوف ودور «لينسكي» ل. سوبينوف.

قدمت هذه الأوبرا للمرة الأولى خارج حدود روسيا عام ١٨٨٨ في براغ، بمشاركة المغنية ب. لاوتيرير-فيورستير التي قال عنها تشايكوفسكي «..لم أكن لأحلم بتاتيانا كهذه»، الذي قام بقيادة العرض الأول للأوبرا شخصيا. كذلك غنى في أوبرا «أونيغين» العديد من المغنيين الإيطاليين، ممن كانوا في جولات فنية لروسيا، مثل م. باتيستيني (في دور أونيغين)، أ. مازينين (لينسكي)، ز. آرنولدسون (تاتيانا).

في بلادنا (الاتحاد السوفييتي وقت طباعة الكتاب - المترجم) عرضت هذه الأوبرا عشرات المرات في عشرات المدن، وبلغات كثيرة، فعلى خشبة مسرح البولشوي وحده، قدم هذا العرض أكثر من ١٥٠٠ مرة). إن عشاق الموسيقى يعرفون عن ظهر قلب أشهر من غنى هذه الأوبرا، ولم يعد لدينا فرصة سماع هذه الأوبرا في دور الأوبرا فحسب، بل إن هناك العديد من

التسجيلات المهمة، وكذلك البث الإذاعي الذي يبث هذه الأوبرا. نسوق بعض مشاهير المغنيين ممن غنوا هذه الأوبرا: ب. نورتسوف، س. ميغاي، ب. ليسيتسيان، ت. كوزيك، غ. أوتس، ن. فورفوليف - في دور أونيغين. ي. كروغليكوفا، ن. شبيلر، ك. بايسييتوفا، س. كييزبايفا، ر. ملوديك - في دور تاتيانا. ي. كوزلوفسكي، س. ليميشيف، ب. بيلينّيك، ي. بولوتين - في دور لينسكي. وفي الآونة الأخيرة اشتهرت كل من غ. فيشنيفسكايا وت. ميلاشكينا في دور تاتيانا، وي. كيبكالو في دور أونيغين. وعلاوة على المسارح الحكومية الكبيرة يقدم الأوبرا أيضا عددا من الفرق المستقلة.

كذلك تم تصوير الأوبـرا، وأصبح بإمكان سكان أبعد المناطق عن العاصمة الاستمتاع بهذه الأوبـرا، إن نجاح «يفغيني أونيغين» يـزداد مع الوقت، وتحقق حلم تشايكوفسكي، الذي كتب يوما: «أتمنى من كل قلبي أن تنتشر موسيقاي، ويزداد عدد عشاقها، ممن يتمكنون من أن يجدوا فيها السلوى والدعم».

# الشخصيات

لارينا، صاحبة الأرض (ميتزو سوبرانو)

تاتيانا، ابنتها (سوبرانو)

أولغا، ابنتها (كونتر ألطو)

فيليبوفنا، المربية (ميتزو سوبرانو)

يفغيني أونيغين، (باريتون)

لينسكي، (تينور)

الأمير غريمين (باص)

روتني (باص)

زاريتسكي (باص)

تريكيه، المعلم الفرنسي (تينور)

غيو، فرنسي – خادم أونيغين (شخصية صامتة)

فلاحون، فلاحات، صاحبو أراضٍ، صاحبات أراضٍ، ضباط، ضيوف في الحفل الكبير.

تدور الأحداث في العشرينيات من القرن التاسع عشر في قرية وكذلك في العاصمة بطرسبرغ.

# الفصل الأول

## المشهد الأول

مزرعة لارينا – بيت والبستان الملحق به.

هبط المساء، ولارينا والمربية فيليبوفنا يصنعان المربى، بينما نستمع إلى غناء تاتيانا وأولغا من داخل البيت.

**تاتيانا** : هل سمعتم صوت الليل خلف البستان

إلى غناء الحب، لمغنٍ يشكو آلامه؟

بينما كانت المزارع مازالت صامتة

صوت مزمار، بسيط يئنّ

هل سمعتم؟

معا

**أولغا** : هل سمعتم صوت الليل خلف البستان

إلى غناء الحب، لمغنٍ يشكو آلامه؟

بينما كانت المزارع ما زالت صامتة

صوت مزمار، بسيط يئنّ

هل سمعتم؟

**لارينا** : ها هم يغنّون.. كما كنت

أنا الأخرى في أزمنة بعيدة أغني

هل تذكرين؟ كيف كنت أغني...

**المربية** : كنتما رائعتين وقتها!

**تاتيانا** : هل تنهّدتهم، وأنتم تستمعون إلى صوته الهادئ

بينما يصدح بآلامه؟

حينما رأيتم ذلك الفتى يهيم في الغابة

وطالعتم عينيه الذابلتين،

هل تنهدتم؟

معا

**أولغا** : هل تنهدتهم، وأنتم تستمعون إلى صوت

مغني الحب، بينما يصدح بآلامه؟

حينما رأيتم ذلك الفتى يهيم في الغابة

وطالعتم عينيه الذابلتين،

هل تنهدتم؟

**لارينا** : كم كنت أحب ريتشاردسون[1]!

(١) صامويل ريتشاردسون (١٦٨٩-١٧٦١) - كاتب وناشر إنجليزي - المترجم.

**المربية** : كنت غضة حينئذ!

**لارينا** : لم يعجبني لأنني قرأته

بل إن الأميرة ألينا

ابنة عمي من موسكو

كانت دائما تتحدث عنه،

آه، غراديسون[٢]! آه، ريتشاردسون

**المربية** : نعم، أتذكر.. أتذكر

كان في وقتها مازال عريسا

زوجكم في المستقبل

بينما كنتم بلا إرادة

تأملون في آخر

كان يروق القلب والعقل

على نحو أكبر بكثير

سويا

**لارينا** : كان أنيقا بديعا

كان مقامرا ورقيبا في الجيش!

---

(٢) أحد كتب ريتشاردسون «قصة السير تشارلز غراديسون» - المترجم.

**المربية** : في ذلك الوقت البعيد!

**لارينا** : كنت دائما أنيقة في ذلك الوقت!

**المربية** : دائما على الموضة.

**لارينا** : كنت أرتدي دائما على الموضة وما يليق بوجهي.

**المربية** : كنت ترتدين على الموضة وما يليق بوجهك.

**لارينا** : وفجأة، ودون استشارتي...

**المربية** : ذهبوا بكما إلى الإكليل.

وبعدها، وحتى يتبدد الحزن.

انتقل الزوج إلى هنا سريعا.

**لارينا** : أوه، كم بكيت في البداية!

وأوشكت على الطلاق من زوجي!

ثم انشغلت في أمور المنزل

تعوّدت، وأصبحت راضية.

**المربية** : ثم انشغلت في أمور المنزل

تعوّدت، وأصبحت راضية

الحمدلله!

**لارينا والمربية** : إن العادة قدر من أعلى

نستبدل بها السعادة

نعم هذا هو الحالّ

العادة قدر من أعلى

نستبدل بها السعادة

**لارينا** : نسيت الكورسيه وألبوم الصور والأميرة بولينا

وكراسة القصائد الرومانسية

**المربية** : أضحت سيلينا تدعى أكولكا

وغيرت في نهاية المطاف..

**لارينا** : أوه!

**لارينا والمربية** : غيرت لباس القطن المنزلي والقبعة

إن العادة قدر من أعلى

نستبدل بها السعادة

نعم هذا هو الحالّ

العادة قدر من أعلى

نستبدل بها السعادة

**لارينا** : لكن زوجي كان يحبني بشدة

**المربية** : نعم، كان السيد يحبكم بشدة

**لارينا** : كان دائما يصدقني على محمل الجد

**المربية** : كان دائما يصدقكم على محمل الجد

**لارينا والمربية** : العادة قدر من أعلى

نستبدل بها السعادة

(نستمع إلى غناء الفلاحين يقترب من بعيد)

**غناء المرتل** : قدماي السريعتان متعبتان من سرعة السير..

**الكورال** : من سرعة السير متعبتان قدماه

**غناء المرتل** : يداي البيضاوتان متعبتان من كثرة العمل..

**الكورال** : من كثرة العمل متعبتان يداه

يقلقني قلبي الغيور

من كثرة المسؤوليات

لا أدري ما أفعل

كيف لعاشق أن ينسى معشوقته

**غناء المرتل** : قدماي السريعتان متعبتان من سرعة السير..

**الكورال** : من سرعة السير متعبتان قدماه

**غناء المرتل** : يداي البيضاوتان متعبتان من كثرة العمل..

**الكورال** : من كثرة العمل متعبتان يداه

(يدخل الكورال والفلاحون معا.)

**الفلاحون** : مرحبا السيدة الأم!

مرحبا سيدة الضيعة!

ها نحن في حضرتك

أتينا بحزمة مزركشة

بعد أن انتهينا من الحصاد

**لارينا** : كم رائع هذا! فلتمرحوا!

كم أنا سعيدة من أجلكم.

فلتغنوا لنا شيئا مبهجا!

**الفلاحون** : اسمحوا لنا أيها السيدة!

هيا بنا نغني ما يروق للسيدة!

فلننتظم في دائرة أيها الفتيات!

حسنا، هكذا؟ قفوا هكذا، وهكذا!

(يبدأ الشباب في رقصتهم، بينما يغني البقية. وتخرج من البيت كل من تاتيانا وبيدها كتاب، وأولغا).

**الفلاحون** : شاب يانع كالثمرة

يعبر جسرا خشبيا

ترالا ترالا لا لا لا

يعبر جسرا خشبيا

ترالا ترالا لا لا لا لا

شاب يانع كالثمرة

يحمل بلوطا على كتفه

وتحت أحد إبطيه يحمل مزمار

وتحت الآخر صفارة صغيرة

خمن، صديقي، لماذا!

ترالا ترالا لا لا لا لا

خمن، صديقي، لماذا!

غابت الشمس. هل غفلت؟

اخرجي لي، أو ابعثي بإحداهن

ترالا ترالا لا لا لا لا

اخرجي لي، أو ابعثي بإحداهن

إما ساشا[٣] وإما ماشا[٤]

أو الحبيبة باراشا

ها هي باراشا تخرج إليه

لتتحدث إلى الحبيب

---

(٣) تدليل ألكسندرا - المترجم.

(٤) تدليل ماريا - المترجم.

ترالا ترالا لا لا لا لا

لتتحدث إلى الحبيب

لا تمتعض يا صديقي

خرجت بما تعتاد ارتداءه

في تنورة قصيرة

وقميص ضيق

ترالا ترالا لا لا لا لا

**تاتيانا** : كم أحب التأمل على أنغام هذه الموسيقى

بعيدا بعيدا...

**أولغا** : آه، تانيا[٥]، تانيا

كم أنت حالمة، أمّا أنا فلست مثلك،

أفرح حينما أسمع الأغاني

(ترقص)

شاب يانع كالثمرة

يعبر جسرا خشبيا

لا أميل للحزن العميق

---

(٥) تدليل لاسم تاتيانا - المترجم.

لا أحب التأمل في سكون

أو الوقوف في شرفة ليلا

أتأوه..أتأوه

من أعماق وجداني.

لم التأوه، بينما تمضي

أيام الشباب بسعادة

أنا حرة منطلقة

يطلقون عليّ طفلة

سوف تشرق وتبتسم لي الحياة دائما

وسوف أظل كما أنا

مثل أمل طائر

مبتهجة، حرة، فرحة

مثل أمل طائر

مبتهجة، حرة، فرحة

**لارينا (متوجهة إلى أولغا)** :كم تبدين مبهجة مفرحة كالطيور

يا صغيرتي المرحة

أكاد أرقص أنا الأخرى

أليس كذلك؟

**المربية (لتاتيانا)** : تانيوشا، آه تانيوشا[٦]

ماذا بك؟ هل مريضة أنت؟

تاتيانا!

**تاتيانا** : لا، مربيتي. أنا على ما يرام

**لارينا (للفلاحين)** : حسنا أعزائي، شكرا على أغانيكم!

تفضلوا إلى جناحكم!

(للمربية)

فيليبوفنا، أعطي الأوامر كي يصبوا لهم الشراب.

وداعا، أصدقائي!

**الفلاحون** : وداعا ربة المنزل!

(الفلاحون يخرجـون، والمربية تخرج في أثرهم. تاتيانا تجلس على درجات الشـرفة، وتستغرق في القراءة.)

**أولغا (إلى لارينا)** : ماماشا (تدليل لماما)، انظري إلى تاتيانا!

**لارينا** : ماذا هنالك؟

(تنظر في اتجاه تاتيانا)

---

(٦) تدليل آخر لتاتيانا - المترجم.

حقا، عزيزتي،

كم شاحبة أنت!

**تاتيانا** : أنا دائما هكذا،

لا تقلقي يا أمي!

ما أقرأه مثير للغاية.

**لارينا (تضحك)** : ألهذا السبب شاحبة؟

**تاتيانا** : وكيف لا يا أمي، تقلقني قصة هذين العاشقين وآلام قلوبهما.. لكم أشـــعر نحوهم بالشفقة، هؤلاء المساكين!

آوه، كم يتألمون

كم يتألمون!

**لارينا** : كفى ، تانيا!

كنت مثلك أنا الأخرى

بينما كنت أقرأ الكتب

كل ذلك خيال مؤلف! مرت السنون

ورأيت أن الحياة تخلو من الأبطال

الآن هدأت...

**أولغا** : هدوء لا داعي له!

انظري : نسيت أن تخلعي مئزر المطبخ!

ماذا لو أتى لينسكي الآن؟

(لارينـــا تخلع المئـــزر في عجلـــة، أولغا تضحك. نسمع ضوضاء من عجلات عربة تصل أمام البيت، ثم نستمع إلى رنين أجراس المنزل)

**أولغا** : أوه! أحدهم وصل... إنه هو!

**لارينا** : حقا!

**تاتيانا (تنظر من الشرفة)** : ليس وحده...

**لارينا** : ترى من يصحب معه؟

المربية تهرع بصحبة قوزاقي (من الخدم)

سيدتي، وصل السيد لينسكي

وبصحبته السيد أونيغين!

**تاتيانا** : ياللهول! سأجري بسرعة

(تريد الهرب)

**لارينا (تمسك بها)** : أين أنت ذاهبة يا تاتيانا؟

سوف ينتقدونك!.. إلهي، وغطاء الرأس المنزلي

مازال على رأسي!..

**أولغا (إلى لارينا)** : دعيهم يدخلون

**لارينا (للقوزاقي)** : ادعهم للداخل بسرعة!

(القوزاقي يجري، ويستعد بتوتر شديد لاستقبال الضيوف. المربية تصلح من هندام تاتيانا، ثم تخرج، وتشير لها بعلامة ألا تخف. يدخل لينسكي وأونيغين، لينسكي يتجه نحو يد لارينا وينحني للفتيات.)

**لينسكي** : مدام! لقد سمحت لنفسي بجرأة

استضافة أحد معارفي، أزكّيه لكم

جاري أونيغين!

**أونيغين (ينحني)** : أنا سعيد للغاية!

**لارينا (بتردد)** : العفو، نحن سعداء بكم، فلتجلسوا!

هؤلاء بناتي

**أونيغين** : مسرور بلقائكن للغاية

**لارينا** : فلندخل إلى الداخل، أو ربما تودون البقاء في الهواء الطلق؟

من فضلكم، بلا طقوس.. نحن جيران ولا داعي للخجل!

**لينسكي** : هنا رائع! أحب هذه الحديقة،

منعزلة تحيطها الظلال!

في أحس بالراحة!

**لارينا** : رائع!

(لبناتها)

سأذهب لمراعاة شؤون المنزل

وأنتن اعتنين بالضيوف، أعود قريبا!

(أونيغين يذهب ناحية لينسكي ويتحدث معه همسا، بينما تقف أولغا وتاتيانا بعيدا تفكران).

**أونيغين (إلى لينسكي)**: أخبرني، من فيهن تاتيانا،

الفضول يقتلني لأعرف.

معا

**لينسكي** : ها هي، تلك الحزينة

الصامتة مثل سفيتلانا

**أونيغين** : أحقا تحب أنت الصغرى؟

**لينسكي** : ما هنالك؟

**أونيغين** : لكنت اخترت الأخرى

لو كنت أنا شاعرا مثلك

لا حياة في ملامح أولغا

تشبه لوحة العذراء لفان ديك[٧]

وجهها دائري أحمر

مثل ذلك القمر الأحمق

على خلفية هذا الأفق الأحمق

كنت اخترت الأخرى!

معا

**لينسكي** : أوه، يا صديقي العزيز! الموج والحجر

والشعر والنثر، والثلج والنار

تتشابه في أشياء بينها

مثلي ومثلك كما نختلف!

**تاتيانا (هامسة)** : بعد طول انتظار، ها أنا ألقاه!

أعلم ذلك حق العلم: إنه هو!

الآن، ومع الأسى، من الآن فصاعدا

ستملأ صورته الأيام والليالي

والحلم الخانق الوحيد!

كل شيء، كل شيء ستملأه تلك الطاقة السحرية

بلا توقف، وسيؤكد كل شيء من حولي

---

(٧) فنان هولندي (١٥٩٩-١٦٤١) - المترجم.

على وجوده، وستحرق نار حبه وجداني!

**أولغا (هامسة)** : أوه، كنت أعلم أن ظهور أونيغين

سيترك لدى الجميع أثرا كبيرا

ويسلّي جميع الجيران

وستسري التخمينات إثر التخمينات

وسيتحدث الجميع بحماسة

وسيضحكون ويمرحون ويحكمون ببراءة

وسيكون لتانيا خطيبا!

(لينسكي يقترب من أولغا . أونيغين يتفحص تاتيانا المتأملة، ثم يقترب منها)

**لينسكي لأولغا** : كم أنا سعيد، كم أنا سعيد

أراكم من جديد!

**أولغا** : أعتقد أننا تقابلنا بالأمس

**لينسكي** : حقا! لكن يوما بأكمله

يوم طويل مر دون أن أراكم

يبدو لي مثل الأبد!

**أولغا** : الأبد - كم هي كلمة مخيفة

الأبد - يوم واحد كالأبد!

**لينسكي** : نعم، كلمة مخيفة!

لكنها ليست مخيفة بالنسبة لحبي!

(لينسكي وأولغا يدخلان إلى عمق الحديقة.)

**أونيغين لتاتيانا** : أخبروني،

جميلة وهادئة ونائية ضواحيكم هذه

لكن، ألا تملّون من هذا الهدوء؟

لا أعتقد أن لديكم هنا من الترفيه

ما يبعث على السرور.

**تاتيانا** : إنني أقرأ كثيرا

**أونيغين** : حقا

إن القراءة غذاء الروح.

لكن ليس بالقراءة وحدها يحيا المرء!

**تاتيانا** : أحيانا ما أتأمل، بينما أمشي الهوينى في الحديقة.

**أونيغين** : وفيم تتأملون؟

**تاتيانا** : إن التفكير العميق صديقي

منذ نعومة أظفاري.

**أونيغين** : أرى شاعريتكم المفرطة،

كنت كذلك في وقت ما!..

(أونيغين وتاتيانا يتابعـــان الحديث، بينما يبتعدان نحو طريق في الحديقة، ويعود لينسكي وأولغا).

**لينسكي** : إنني أحبكم

إنني أحبكم يا أولغا،

أحبكم كروح شاعر ملتاعة

تدين بذلك الحب

في كل لحظة ومكان يحدوني الأمل

رغبة وحيدة عارمة

ألم وحيد معتاد!

كنت أسيرك منذ الصبا

بينما لم أكن أعرف آلام القلوب بعد

كنت شاهدا عن بعد

لكل لهوك الطفولي!

وتحت ظلال أشجار البلوط

شاركتك المرح الطفولي، أوه!

إنني أحبك، أحبك

كيفما تحب روح شاعر:

أنت وحدك أمنيتي

أنت وحدك رغبتي

أنت سر سعادتي، وآلامي

إنني أحبك، أحبك

ولن يفرقنا البعد أو ضوضاء المرح يوما

ولن تُطفئ نار الحب العذري الملتهب.

**أولغا** : تحت سقف هدوء الريف

ترعرعنا سويا...

(معا)

أنا أحبك!

**أولغا** : أتذكر حينما تتبأ أبوانا

بزواجنا منذ نعومة الأظفار؟!

(معا)

أنا أحبك، أحبك!

(تخرج مـــن البيت لارينا والمربيـــة. يخيم الظلام بنهاية المشهد)

**لارينا** : آه، ها أنتم! وأين ذهبت تانيا؟

**المربية** : لابد أنها تتمشى مع الضيف عند البركة

سأذهب لأناديها.

**لارينا** : نعم، قولي لها:

حان الوقــت لدخــول الغرفة، لابــد أن الضيوف جوعى

لنطعمهم مما رزقنا الله.

(المربية تخرج)

**لارينا (إلى لينسكي)** : تفضلوا بالدخول!

**لينسكي** : نحن وراءكم!

(لارينا تدخل إلى الغرفة، ويتبعها مع بعض التأخر أولغا ولينســكي. ومن ناحية البركــة تأتي تاتيانا بصحبة أونيغين ومن وراءهم المربية).

**أونيغين (لتاتيانا)** : كان عمي رجلا صارما

لم يحظ باحترامي

إلا قسرا

وكان هذا كل ما بوسعه

ولسان حاله:

أنا قدوة لمن حولي

يا إلهي، كم كانت مملة

(في الشرفة)

تلك الأيام والليالي

التي قضيتها مع المريض

دون أن أتمكن من الابتعاد خطوة عنه!

(أونيغين وتاتيانا يدخلون إلى البيت)

**المربية (هامسة)** : صغيرتي، تمشي بهدوء منكسة الرأس

وعينيها وجهة الأرض

كم هي خجولة!..

ترى هل تعجب هذا السيد الجديد؟..

(تدخل إلى البيت، بينما تفكر وتهز رأسها)

## المشهد الثاني

غرفة تاتيانا، ليل متأخر

**المربية** : أوه، لابـــد أنني ثرثرت كثيـــرا! حان وقت النوم يا تانيا!

سأوقظك مبكرا للقداس.

هيا إلى الفراش سريعا!

**تاتيانا** : يجافيني النوم مربيتي: الجو خانق هنا!

افتحي النافذة واجلسي معي!

**المربية** : ماذا، ماذا بك يا تاتيانا؟

**تاتيانا** : أشعر بالملل،

هلا تحادثنا عن الماضي.

**المربية** : عم نتحدث يا تانيا؟ كنت في السابق

أحفظ عن ظهر قلب الكثير والكثير

عن الأحداث والحوادث

عن الأرواح الشريرة وعن الفتيات

الآن خيم الظلام على الذاكرة

نسيت كل ما كنت أتذكره من قبل

وآن أوان الزمن السيئ!

مضى زمني يا بنيتي

**تاتيانا** : احك لي يا مربية

احك لي عن زمنكم الماضي

هل أحببت يوما؟

**المربية** : كفى يا تانيا! في زمننا

لم نسمع شيئا عن الحب

وإلا لطردتني المرحومة خالتي (حماتي)

من على هذه الأرض!

**تاتيانا** : وكيف تزوجت إذن؟

**المربية** : كانت إرادة اللـــه. كان حبيب عمري فانيا (تدليل لاسم إيفان)

أصغر مني في السن

وكان عمري وقتها

ثلاثة عشر عاما

دارت الخاطبة أسبوعين

حول أقربائي، وفي النهاية

باركني أبي.

بكيت بحرقة من فرط الخوف

حتى غمر الدمع ضفيرتيّ

ثم أتوا بي إلى الكنيسة مغنيين

وذهبوا بي إلى أسرة غريبة...

ألا تنصتين إلي؟

**تاتيانا** : آه! يا مربيتي، مربيتي العزيزة..

إني أتألم، بي لوعة،

أختنق، مستعدة كي أنفجر بالبكاء!

**المربية** : ما بك يا ابنتي، لست على ما يرام

الرحمة من عندك يا رب!

لعلك تحترقين من المرض..

**تاتيانا** : لست مريضة

أنا.. أتعرفين عزيزتي.. أنا .. أحب!

اتركيني، اتركيني وحدي!

أنا أحب!

**المربية** : كيف ذلك...

**تاتيانا** : اذهبي، واتركيني وحدي!...

أعطيني، من فضلك، ريشة وورقة

وأزيحي المكتب ناحيتي، سأذهب للنوم قريبا...

سامحيني

**المربية** : ليلة هادئة يا تانيا!

(تخرج)

**تاتيانا** : فليأخذني الموت، ولكن قبلها

بأمل يعمي العيون،

سأستجدي ذلك النعيم المظلم،

أتعرف على حلاوة الحياة!

إنني أشرب سم الرغبة المسحور

تحاصرني الأحلام:

تقف أمامي صورتك

في كل مكان، كل مكان

ملهمي القدري،

في كل مكان، كل مكان

أمامي!

(تكتب سريعا، ثم تقطع الورقة التي كتبت فيها.)

كلا، ليس هذا ما أريد! سأبدأ من جديد!..

آوه، ماذا بي! إنني أحترق!

لا أدري كيف أبدأ...

(تفكر، ثم تبدأ في الكتابة من جديد.)

إني أكتب لكم، فماذا أكثر من ذلك؟

ماذا عساي أن أقول أيضا؟

الآن أعلم أن في استطاعتكم

أن تعاقبوني بنظرة احتقار

لكنكم، لنصيبي التعس،

ستحتفظون بقطرة من الشفقة،

لن تتركوني!

لقد أردت أن أصمت في البداية.

ولم يكن لكم أن تعرفوا أبدا

مدى خجلي، صدقوني!

(تفكر.)

نعم، كنت قد أقسمت لنفسي سلفا

أن أكتم حبي المجنون والملتهب

لكن للأسف! لا أستطيع التحكم في وجداني

سوف أعترف له! بقوة! سوف يعرف كل شيء.

(تستمر في الكتابة).

لم، لم كانت زيارتكم؟

في قريتنا تلك المهجورة

ما كنت لأعرفك،

ما كنت لأعرف العذاب المضني.

كيف لروح لم تعرف القلق

مستسلمة للزمن.. كيف لها أن تعرف؟

ما كان قلبي ليجد رفيقه،

لأصبح زوجة مخلصة،

وأما حنون...

ولكن! .. لا، لم أكن

لأمنح قلبي لأحد في الكون!

إنه قدر من أعلى

إرادة السماء أن أكون لك!

لقد كانت حياتي كلها عهدا

في انتظار لقياك،

أعلم، أن الله بعث بك إليّ

لتكون حارسي حتى الممات!

كنت تظهر لي في الأحلام،

كنت خفيا، لكنك كنت جذابا

تعذبني نظراتك الرائعة

وكان صوتك يملأ روحي

منذ قديم الأزل.. لا، لم ذاك حلم!

كنت تدخل عليّ، وأحس بتلك اللحظة،

أنني أتجمد، أذوب شوقا

وأفكر في قرارة نفسي: ها هو!

ها هو!...

أما كان ذلك حقا، كنت أسمعك

كنت تتحدث معي في السكينة،

حينما كنت أساعد الفقراء

وحينما كنت أصلي الصلوات

لتهدأ عذابات الروح؟

هل كان ذلك أنت في تلك اللحظة؟

هل كان ذلك طيفك الجذاب؟

يلوح خلف الظلام الشفاف

وكنت تظهر في هدوء،

بحب وحبور،

لتمنحني كلمات الأمل؟

من أنت، هل أنت ملاكي الحارس

أم أنت شيطان غادر،

هلا سبرت أغوار شكّي،

قد يكون كل ذلك أمرا فارغا

خداع روح ساذجة

أما القدر فشيء آخر

..وليكن

سوف أسلمك قدري من الآن فصاعدا

وسأذرف الدمع أمامك

أتوسل حمايتك

أتوسلها

تصور أنني ها هنا وحيدة

أحد لا يفهمني

تعذبني أفكاري

وعلي أن أهلك!

أنتظرك

أنتظر منك نظرة واحدة تحيي أمل قلبي

أو توقف الكابوس المضني

أم سوف تمنحني لوما مستحقا؟!

أنهي الخطاب.. تتملكني الرهبة لقراءته

الرعب والخجل يجمدان أطرافي

لكنني أتعهد لك بالحفاظ على شرفك

وأقسم بذلك أمام نفسي.

(تشرق الشمس، تاتيانا تفتح النافذة).

آه، ها هي الليلة قد مرت،

واستيقظت الشمس وكل الكائنات.

(نسمع صوت مزمار)

وهـــا هو الراعي يعـــزف على مزماره.. كل شـــيء هادئ

أما أنا.. أنا؟

(تاتيانا تفكر، تدخل المربية).

**المربية** : حان الوقت يا صغيرتي! هيا استيقظي!

أَراكِ مستعدة بالفعل!

يا عصفورتي النشيطة!

انتابني القلق عليك في المساء!..

لكني أراكِ، يا صغيرتي، بصحة جيدة حمدا لله:

ولا آثار لهموم المساء،

واكتسى وجهك بلون الخشخاش

**تاتيانا** : آه، يا مربيتي، هل أسألك جميلا

**المربية** : العفو يا حبيبتي، بل أؤمريني

**تاتيانا** : لا تأخذك الظنون.. الحق هو.. أو أي شك...

كما ترين.. آه، أرجوك لا ترفضي!...

**المربية** : أقسم لك بذلك!

**تاتيانا** : حسنا، أرسلي حفيدك سرا

بهذه الرسالة إلى أو.. ذلك ال ..

إلى الجار.. وقولي للحفيد

ألا ينبس ببنت شفة..

وألا يفضح سري

**المربية** : إلى من يا جميلتي؟

في سني لم أعد أفهم شيئا

كثير من الجيران حولنا،

كيف لي أن أحصيهم!

إلى من، إلى من؟ أفصحي لي!

**تاتيانا** : كم تعجزين عن التخمين، يا مربيتي!

**المربية** : حبيبتي القلبية، لقد شخت

شخت، ولم يعد العقل يقوى يا تاتيانا،

كنت في الماضي نشيطة،

**تاتيانا** : آه يا مربيتي، يا مربيتي أي كلمة؟!

ما لي وعقلك!

كما ترين، قضيتي الرسالة!

**المربية** : ولكن القضية، القضية، القضية...

**تاتيانا** : ما لي وعقلك!

(معا)

**المربية** : لا تغضبي يا روحي:

تعلمين كم أنا بطيئة الفهم!

**تاتيانا** : إلى أونيغين!

**المربية** : لكن القضية، القضية!

**تاتيانا** : إلى أونيغين!

**المربية** : فهمت!

**تاتيانا** : أرسلي حفيدك

بالرسالة إلى أونيغين يا مربيتي!

(سوية)

**المربية** : لا تغضبي يا روحي:

تعلمين كم أنا بطيئة الفهم!

(المربية تأخذ الرسالة.)

**المربية** : لم يشحب وجهك من جديد؟

**تاتيانا** : حسنا، يا مربيتي.. الواقع، لا شيء...

أرسلي حفيدك!

(تخرج المربية، وتجلس تاتيانا إلى المكتب، وتميل عليه وتعود إلى التفكير)

## المشهد الثالث

ركن منزو من حديقة منزل عائلة لارين، بينما تجمع فتيات الضاحية الثمار ويغنين.

**الفتيات** : أيها الفتيات، الفاتنات

الصديقات، المحبوبات

العبن، وامرحن

واصدحن بالأغنية العزيزة

لتجذبن الفتى

إلى جوقتنا

وما أن يلحظنا

ونراه من بعيد

فلتجرين أيتها الجميلات،

ولنقذفه بالكرز والتوت

والكشمش الأحمر.

إياك والاقتراب والاستماع

لأغانينا العزيزة

إياك والتلصص

على ألعابنا نحن الفتيات

(تتحرك الفتيات إلى عمــق الحديقة، وتدخل إلى المشــهد تاتيانا العاشــقة، وتقع على المقعد في الحديقة.)

**تاتيانا** : إنه هنا.. يفغيني هنا!..

يا إلهي، يا إلهي، ماذا عساه يفكر!..

ماذا عساه يقول؟..

بحت له بأنين روحي العليلة،

ولم أتمكن من التحكم في عواطفي،

وكتبت له رسالة!

نعم، الآن يخبرني قلبي،

أنه سيسخر مني،

الفاتن القدري...

يا إلهي، كم أنا تعسة،

كم أنا مسكينة!..

(تستمع إلى وقع خطوات، تسترق السمع مجددا)

خطوات.. تقترب

نعم، إنه هو، هو!..

(يظهر أونيغين، ويقترب من تاتيانا.)

**أونيغين** : لقد كتبتم لي،

لا تتكروا، فقد قرأت

اعتراف وجدانكم الصادق،

وفائض حبكم البريء.

لاشك أن صراحتكم تروق لي،

ودفعتني بأحاسيسي الهامدة منذ فترة طويلة

إلى التوتر والقلق،

لكنني لست هنا كي أمدحكم

أود أن أعترف لكم أنا الآخر

بصدق وبلا تكلف

فلتسمعوا اعترافي من فضلكم

ولتحكموا بأنفسكم.

مكتبة
t.me/ktabrwaya

**تاتيانا (تهمس لنفسها)** : يا إلهي، كم ذلك مؤسف، كم هو مؤلم!

**أونيغين** : إذا ما قدر لي يوما أن أقصر

حياتي على محيط أسري،

إذا ما قدر لي نصيبي الطيب يوما

أن أصبح زوجا وأبا،

فلعلني لن أبحث عن

عروس آخر سواك.

لكنني لم أولد للاستقرار،

غريبة روحي عليه،

إن كمالك غير ذي جدوى،

لا أستحقه البتة.

صدقوني (والضمير هنا الحاكم)،

ليسببن الزواج لنا كربا،

ومهما بلغ مقدار حبي لكم،

بحكم العادة سأتوقف عنه من فوري.

ولتحكموا بأنفسكم، أي ورود

يجلبها لنا غيميني[٨]

وربما لأيام طويلة قادمة.

لا عودة للأحلام أو السنين،

أوه، لا عودة.

---

(٨) إله الزواج والارتباط عند الإغريق، الحاكم على جزيرة الحب السعيدة، وهو المسؤول عن السعادة في العلاقة الزوجية بين الرجل والمرأة.

ولن أعيد تجديد روحي!..

إنما أحبك حبا أخويا،

حبا أخويا

وربما، ربما حبا أرق!

فلتسمعوني دون غضب:

سوف تتبدل الأحلام البسيطة بأحلام أخرى

للفتاة البكر الجميلة أكثر من مرة

تعلّموا السيطرة على مشاعركم،

فلن يتفهمكم الجميع كما تفهمتكم،

وقد تعرضكم سذاجتكم للمتاعب!

**أونيغين والفتيات من وراء المسرح معا:** أيها الفتيات، الفاتنات

الصديقات، المحبوبات

العبن، وامرحن

واصدحن بالأغنية العزيزة

(أونيغـن يقدم يـده لتاتيانا، ويخرجـان في اتجاه المنزل. بينما تتابع الفتيات الغناء، ويختفين)

**الفتيات** : لتجذبن الفتى

إلى جوقتنا

وما أن يلحظنا

ونراه من بعيد

فلتجرين أيتها الجميلات،

ولنقذفه بالكرز.

إياك والاقتراب والاستماع

لأغانينا العزيزة

إياك والتلصص

على ألعابنا نحن الفتيات

# الفصل الثاني

## المشهد الأول

حفل في بيت لارين، يرقص الشباب، بينما يجلس الضيوف الأكبر سنا في مجموعات يتبادلون الأحاديث، بينما يراقبون الراقصين.

**الضيوف** : يا لها من مفاجأة!

لم ننتظرها قط

موسيقى عسكرية!

كم ينتظرنا من المرح!

منذ زمن بعيد

لم يمتعنا أحد بذلك

حفل مهيب،

أليس كذلك أيها السادة؟

برافو، برافو، برافو، برافو!

يا لها من مفاجأة لنا! برافو!

برافو، برافو، برافو، برافو!

مفاجأة لطيفة لنا!

إقطاعيون أكبر سنا

نادرا ما يحدث في ضيعتنا

حفل مرح لامع كهذا

كم نتوق لمتعة كهذه

بدلا من هرج الصيد ومرجه.

**السيدات** : يا له من مرح

الجميع يطيرون من السعادة

في البراري، والمروج، والبحيرات، وبين الشجيرات

يتعبون، فيستلقون

والجميع يستمتعون،

مرح لنا نحن المساكين من السيدات!

(يظهر قائد السرية، فتحيطه الفتيات)

**الفتيات** : أوه، تريفون بيتروفيتش

كم أنت لطيف، برافو!

كم نحن ممتنات لك!

**القائد** : كفى عزيزاتي!

بل أنا أكثر سعادة!

**الفتيات** : سنرقص طربا ومرحا

**القائد** : وأنا أيضا أعتزم الرقص

فلتبدأن أنتن!

(يعاودون الرقص. بين الراقصين والراقصات - تاتيانا وأونيغين، حيث تتجه إليهما أنظار السيدات)

**مجموعة من السيدات** : انظرن .. انظرن

كيف يرقص المتأنقون!

**مجموعة أخرى من السيدات**: حان الوقت منذ زمن!

**المجموعة الأولى** : يا له من عريس!

**المجموعة الثانية** : نأسف لتانيوشا[٩]

**المجموعة الأولى** : سوف يتزوجها...

(معا)

ثم يصبح مستبدا كالبقية:

يقولون إنه مقامر!

(أونيغين ينتهي من الرقص، ويمضي عبر القاعة،

---

(٩) تدليل تاتيانا - المترجم.

بينما يستمع إلى همهمات السيدات عنه)

**السيدات** : هو شديد الجهل، وأحمق

لا يقترب من أيدي النساء

ماسوني، يشرب وحده

كأسا من الشراب!

**أونيغين (مخاطبا نفسه)** : ها هي الآراء!

استمعت بما فيه الكفاية

إلى كل الشائعات المغرضة!

التي يشركونني فيها!

لم أتيت إلى هذا الحفل السخيف؟ لم؟

لن أغفر لفلاديمي[١٠] هذه الفعلة!

سوف أولي أولغا اهتمامي،

لأثير غضبه!

ها هي!

(أونيغيـــن يتوجه إلى أولغا، في الوقت الذي يتوجه فيه لينسكي إليها)

---

(١٠) لينسكي - المترجم.

**أونيغين (لأولغا)** : هل لي بهذه الرقصة!

**لينسكي (لأولغا)** : لقد وعدتموني بهذه الرقصة الآن!

**أونيغين (إلى لينسكي)** : أخطأت بالقطع.

(أولغا ترقص مع أونيغين )

**لينسكي (مخاطبا نفسه)** : أوه، ما هذا!..

لا أصدق عينيّ!.. أولغا!..

يا إلهي، ماذا بي!..

**الضيوف** : إنه حفل مهيب!

يا لها من مفاجأة!

كم ينتظرنا من المرح!

منذ زمن بعيد

لم يمتعنا أحد بذلك

يا لها من مفاجأة!

لم ننتظرها قط

موسيقى عسكرية!

مرح بلا حدود!

برافو، برافو، برافو، برافو!

يا لها من مفاجأة لنا! برافو!

برافو، برافو، برافو، برافو!

برافو، أليس كذلك أيها السادة؟

موسيقى عسكرية!

لم ننتظرها قط

إنه حفل مهيب!

مرح بلا حدود!

إنه حفل مهيب!

(حينما يرى لينسكي أولغا تنتهي من رقصتها، يتوجه إليها على الفور، وأونيغين يراقبهما من بعيد)

**لينسكي (لأولغا)** : هل أستحق منكم سخرية كهذه؟

أوه، أولغا، كم أنتم قاسون في التعامل معي!

ماذا عساي فعلت؟

**أولغا** : لا أفهم

فيم أنا مذنبة؟

**لينسكي** : كل رقصات الإيكوسيز[11]، والفالسات

---

(١١) رقصة أسكتلندية قديمة ذات إيقاع ثلاثي متمهل، كانت تتمتع بشعبية داخل الصالونات في ذاك الوقت.

رقصتموها مع أونيغين!

دعوتكم،

ورفضتموني!

**أولغا** : فلاديمير، كم هذا غريب:

تغضب لأتفه الأشياء!

**لينسكي** : كيف! «تفاهات»؟!

وهل معقول أن أتجاهل ما رأيت،

حينما تجرأت بأن تضاحكت وتباسطت معه؟!

ومال هو نحوك، وضغط على يدك!..

لقد رأيت كل شيء!

**أولغا** : كل هذه تفاهات وسخافة!

لا داعي لغيرتك هذه:

كنا نتحاور معا.

إنه لطيف للغاية.

**لينسكي** : «لطيف للغاية»؟

أوه، أولغا، أنتم لا تحبونني!

**أولغا** : كم أنت غريب

**لينسكي** : أنتم لا تحبونني!..

إذن.. هلا رقصتم معي الكوتيليون[١٢]؟

**أونيغين** : كلا، بل معي!

ألم تعدوني بهذه الرقصة؟

**أولغا (لأونيغين)** : وسأفي بوعدي!

(لينسكي يبدي علامة التوسل)

**أولغا (إلى لينسكي)** : وهذا عقاب لك بسبب غيرتك!

**لينسكي** : أولغا!

**أولغا** : أبدا!

(أولغـــا وأونيغين يبتعدان عن لينســكي، وتتحرك نحوهم مجموعة من الفتيات المتحمسات)

**أولغا** : انظروا، تتحــرك جميع الفتيات إلى هنا بصحبة تريكيه!

**أونيغين** : من هو؟

**أولغا** : فرنسي، يعيش في بيت خارليكوف

**الفتيات** : مسيو تريكيه، مسيو تريكيه!

---

(١٢) رقصة فرنسية اشتهرت في الصالونات في منتصف القرن التاسع عشر تجمع بين الفالس والمازوركا والبولكا.

غن لنا مقطع الأغنية (بالفرنسية)!

**تريكيه** : مقطع الأغنية أملكه معي[١٣]

لكن أخبروني أين المدموازيل؟

لابد أن يقف هنا أمامي،

لأن مقطع الأغنية من أجلها (بالفرنسية)!

**الفتيات (تأتين بتاتيانا إلى تريكيه)** : ها هي! ها هي!

**تريكيه** : حسنا (بالفرنسية)، يا ملكة هذا اليوم!

السيدات، ها أنا أبدأ

أطلب منكم عدم المقاطعة!

(تريكيه يضع تاتيانا بإجلال وسـط دائرة الفتيات، ويبدأ في غناء مقطع الأغنية)

**تريكيه** : كم رائع هو ذلك اليوم

حينما استيقظت في ظل هذه القرية

تاتيانا الجميلة

ونحن إذ أتينا هنا،

فتيات، وسيدات، وسادة

---

(١٣) تريكيه يتحدث الروسية بأخطاء نحوية، تعمدها الشاعر.

لنشهد كيف تتفتح كالزهرة هي

أنتم زهرة، أنتم زهرة، يا تاتيانا الجميلة

**الضيوف** : برافو! برافو! برافو مسيو تريكيه

مقطع أغنيتكم رائع

وغنيتموه بعذوبة فائقة!

**تريكيه** : نتمنى لك أن تكون سعيدة

وأن تكونوا عروس هذا الشاطئ (بالفرنسية)

وألا تمرضوا أو تملّوا!

وألا تنسوا في خضم سعادتكم

خادمكم المطيع

وجميع صديقاتكم!

أنتم زهرة، أنتم زهرة، يا تاتيانا الجميلة

**الضيوف** : برافو! برافو! برافو مسيو تريكيه

مقطع أغنيتكم رائع

وغنيتموه بعذوبة فائقة!

**القائد** : السيدات والسادة، أطلب منكم شغل أماكنكم!

الآن يبدأ الكاتيليون،

تفضلوا!

(تبـدأ المازوركا، يرقص أونيغيـن مع أولغا، بينما يراقبهما لينسكي في غيرة. وبعد أن ينتهي أونيغين من الرقص يقترب من لينسكي)

**أونيغين** : لم لا ترقص، لينسكي؟

مالك تقف كتشايلد هارولد[١٤] هكذا!

ماذا بك؟

**لينسكي** : بي أنا؟ لا شيء

أتابع إعجابي بك،

كم أنت صديق وفي!

**أونيغين** : أي صديق؟

لم أتوقع اعترافا كهذا!

ما الذي يثير غضبك؟

**لينسكي** : غضبي؟ إنه عارم

معجب أنا بكلماتك اللعوبة

ونقاشاتك الاجتماعية

---

(١٤) يقتبس الشاعر هنا شخصية تشايلد هارولد من الرواية الشعرية «حج تشايلد هارولد» التي كتبها الشاعر الإنجليزي الرومانسي جورج غوردون بايرون (١٧٨٨-١٨٢٤)، في أربعة أجزاء، ونشرت بين ١٨١٢-١٨١٨، ويجسد هارولد حالة خيبة الأمل والسوداوية التي سادت في حقبة ما بعد الثورة الفرنسية، والحكم النابليوني.

وكيف تدير برؤوس فتيات المجتمع

وتخدعهن وتعصف بهدوئهن وتخدش حياءهن

يبدو أن تاتيانا وحدها لا تكفيك!

ومن فرط حبك لي، قررت أن تخدش

حياء أولغا هي الأخرى،

فتضاحكها وتخدعها وتغرر بها

كم في ذلك من الأمانة!

**أونيغين** : ماذا؟ هل أصابك الجنون!

**لينسكي** : رائع! وتهينني أيضا،

وتتعتني بالجنون!

**الضيوف (يلتفون حول أونيغين ولينسكي)** : ماذا هناك؟ ما الذي حدث؟

**لينسكي** : أونيغين! لم تعد من الآن صديقا لي!

ولم أعد أرغب في التقرب منك

إني.. إني أحتقرك!

**الضيوف** : يا لها من مفاجأة غير متوقعة!

أي شجار هذا الذي تفجر:

لم يعد ذلك مزاحا!

**أونيغين (ينتحي بلينسكي جانبا!)**: استمع إليّ، لينسكي. غير محق أنت، غير محق!

دعنا لا نلفت الأنظار إلى الخلاف بيننا!

لم أخدش حياء أحد،

ولا نية لدي لفعل ذلك

**لينسكي** : إذن لم ضغطت على يدها،

همست في أذنها بشيء ما؟

فاحمرت وجنتاها، وضحكت، هي..

ماذا، ماذا قلت لها؟

**أونيغين** : استمع إليّ! هذه حماقة!..

الضيوف يحيطون بنا من كل جانب..

**لينسكي** : وما شأني بهذا؟

لقد أهنتني

وأطالب بحقي في الانتقام!

**الضيوف** : ماذا حدث؟

احكوا لنا، احكوا لنا، ماذا حدث؟

**لينسكي** : ببساطة .. أنا أطالب

السيد أونيغين بأن يبرر لي تصرفاته.

وهو لا يرغب في ذلك،

لذلك أطلب منه أن يوافق على نزالي!

**لارينا** : يا إلهي! في بيتنا!

الرحمة، الرحمة!...

**لينسكي** : في بيتكم!.. في بيتكم!..

في بيتكم مضت سنوات طفولتي

مثل أحلام ذهبية،

تعرفت في بيتكم للمرة الأولى،

على فرحة الحب النقي الطاهر

لكنني اليوم رأيت شيئا آخر:

رأيت أن الحياة ليست رواية،

والشرف ليس أكثر من صوت، والصداقة كلمة فارغة

رأيت الخيانة البائسة المهينة!

(معا)

**أونيغين (لنفسه)** : في قرارة نفسي

لست راضيا عما فعلت

لقد سخرت باستهتار

من تلك العواطف الرقيقة الخجلة!

وعلى الرغم من معزتي للفتى من كل قلبي

إلا أن عليّ ألا أبدو ككرة متأرجحة

بل رجلا ذا شرف وعقل راجح.

**تاتيانا (لنفسها)** : أنا مصدومة، ويعجز العقل

عن فهم يفغيني..وتقلقني،

تؤلمني مشاعر الغيرة...

أوه، كم تقطع الآلام قلبي...

وكأن يدا باردة

تعتصر قلبي،

بقسوة شديدة!

(معا)

**أولغا ولارينا (لأنفسهما)** : أخاف أن تنتهي الليلة

بمبارزة بعد الحفل والمرح

**الضيوف** : مسكين لينسكي!

كم هو فتى مسكين!

**أونيغين (لنفسه)** : لقد سخرت باستهتار!

**لينسكي** : رأيت في بيتكم الجمال البكر

الذي يشبه الملاك في حلاوته

ويشبه النهار في ضيائه، لكن روحه.. روحه

مثل الشيطان في غوايته وشره!

**تاتيانا (لنفسها)** : أوه، يخبرني قلبي

بأنني قد انتهيت، انتهيت أنا!

قتلت بنيران ودية،

قتلت بنيرانه الودية!

يخبرني القلب بأني سوف أموت، أموت!

لكنني لا أقوى على التذمر!

ولم التذمر، لم التذمر؟

وهو غير قادر على منحي السعادة!

(معا)

**أولغا (لنفسها)** : آه، تجري دماء حارة في عروق الرجال

يحلّون كل مشكلاتهم بالقوة

يعجزون عن الحياة بلا عراك!

تحتضن روحهم الغيرة القاتلة،

لم أرتكب أي ذنب،

أي ذنب!

إنهم الرجال، من لا يستطيعون الحياة بلا عراك

يتلاقون، يتجادلون، وإذا هم مستعدون

للعراك!

هاكم الحفل!

هاكم الفضيحة!

(معا)

**لارينا (لنفسها)** : آه، كم مندفعون هم الشباب

يحلّون كل مشكلاتهم بالقوة،

لا يستطيعون الحياة بلا عراك!

أخاف أن تنتهي الليلة

بمبارزة بعد الحفل والمرح

كم مندفعون هم الشباب!

لا يستطيعون الحياة بلا عراك!

يتلاقون، يتجادلون، وإذا هم مستعدون

للعراك!

هاكم الحفل!

هاكم الفضيحة!

**أونيغين (لنفسه)** : في قرارة نفسي

لست راضيا عما فعلت:

لقد سخرت باستهتار

من تلك العواطف الرقيقة الخجلة!

وعلى الرغم من معزتي للفتى من كل قلبي

إلا أن عليّ ألا أبدو ككرة متأرجحة

أو كطفل أهوج، وإنما رجل راجح العقل

أنا مذنب!

كم هو شعور مزعج ومؤلم!

في قرارة نفسي

لقد سخرت باستهتار

من تلك العواطف الرقيقة الخجلة!

كطفل أهوج أو مصارع!

لم يعد هناك ما أفعله الآن

سوى الرد على الإهانة!

(معا)

**الضيوف** : ترى هل تنتهي الليلة

بمبارزة بعد الحفل والمرح؟

ألا أن الشباب مندفع

يحلّون كل مشكلاتهم بالقوة،

لا يستطيعون الحياة بلا عراك!

يتلاقون، يتجادلون، وإذا هم مستعدون

للعراك!

هاكم الحفل!

هاكم الفضيحة!

**لينسكي (لنفسه)** : كلا، لست مذنبة يا ملاكي!

لست مذنبة، لست مذنبة يا ملاكي!

هو الوضيع، الغاوي، خائن بلا روح!

وسأعاقبه!

لست مذنبة أنت يا ملاكي!

هو الغاوي الوضيع،

وسوف أكون منقذك!

لا أقبل أن ينقض ذلك الشيطان

بنيرانه وأنفاسه وغوايته

على قلبك الصغير،

وأن تتسرب ديدانه المسمومة

إلى الزنبق البريء

وأن تذبل الورود المتفتحة بعدها في الصباح

أيها الخائن، الغاوي عديم الشرف!

**أونيغين (يقترب من لينسكي)** : انتهينا، أنا في خدمتكم إذن!

لقد استمعت إليكم للنهاية:

أنتم بلا عقل، أنتم بلا عقل

ولن يجدي نفعا سوى أن ألقنكم درسا لا تنسوه!

**لينسكي** : حسنا، إلى الغد!

سنرى من يلقن الآخر درسا!

قد أكون مجنونا، لكنكم..

أنتم غاوٍ بلا شرف!

**أونيغين** : اخرس.. سوف أقتلكم!

**الضيوف** : ياللفضيحة! لا يجب أن نسمح بذلك

لا يجب أن نسمح بالمبارزة بينهما، بدماء مهدرة:

لن نسمح بخروجهما من هنا. أمسكوا بهما،

أمسكوهما، أمسكوهما!

لن نسمح لهما بالخروج من المنزل،

لن نسمح!

**أولغا** : فلاديمير، اهدأ، أتوسل إليك!

**لينسكي** : آه، أولغا، أولغا! الوداع للأبد!

(يخرج مسرعا)

**الضيوف** : مبارزة!

## المشهد الثاني

طاحونة قديمة مهجورة، المكان المحدد للمبارزة. فجر شتوي. وصل لينسكي وشاهده[١٥] زاريتسكي، في انتظار أونيغين.

**زاريتسكي** : حسنا، يبدو أن خصمك لم يصل بعد!

**لينسكي** : يصل الآن!

**زاريتسكي** : أرى تأخيره غريبا بعض الشيء،

لقد تخطت الساعة السادسة!

كنت أظنه ينتظرنا!

(زاريتسكي يتوجه ناحية الطاحونة، بينما يجلس لينسكي متأملا)

**لينسكي** : ترى أين

أين

ذهب ربيع أيامي الذهبية؟

ترى ما يخبئ لي اليوم القادم؟

---

(١٥) كان من بين القواعد الأساسية التي سادت في مبارزات تلك الفترة (وفقا لقواعد الدوق شاتوفيليار عام ١٨٣٦، والتي سادت حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر) وجود شاهد لكل مبارز على حدة، على أن يكون من نفس الطبقة الأرستقراطية.

لا يتمكن بصري من رؤية الغيب

يبدو مختبئًا وراء ضباب حالك

لكن قانون القدر حاكم

ترى هل أقع برصاصة نافذة؟

أم تمر الرصاصة بجانبي؟

لكل الطيبات في الوعي أو المنام نهاية

ساعة محددة للنهاية

فتبارك يوم الهموم

وتبارك مجيء الظلام!

يتلألأ شعاع اليوم الجديد

وتتضح معالم اليوم المشرق

وأنا قد أكون مثل قبر

أختفي وراء ظلال غامضة

ويبتلع الصيف البطيء

ذكرى الشاعر الشاب

فهل ينساني العالم، وأنت..

أنت.. أولغا...

قولي لي، هل تأتين، يا فتاتي الجميلة،

لتذرفي دمعا

على قبري المبكر

وتفكرين: لقد أحبني،

ووهب لي وحدي

شروق حياته المأساوية العاصفة!

آه، أولغا، كم أحببتك

ووهبت لك وحدك

شروق حياتي المأساوية العاصفة،

آه، أولغا، كم أحببتك!..

رفيقي الحبيب، رفيقي المرغوب،

تعال، تعال!

تعال، يا رفيقي المرغوب، فأنا رفيق دربك!..

تعال: فأنا رفيق دربك!..

تعال!.. تعال!..

ترى أين

أين

ذهب ربيع أيامي الذهبية؟

(يظهر أونيغين، وخادمه غييو. زاريتســكي يقترب من لينسكي بمجرد رؤيتهم.)

**زاريتسكي** : ها هم!..

من هذا الذي يرافق صديقك؟

لا أراه جيدا!

**أونيغين (منحنيا)** : أستميحكم عذرا:

فقد تأخرت قليلا...

**زاريتسكي** : اسمحوا لي! أين شاهدكم للمبارزة؟

في المبارزة أنا تقليدي صارم

من بين الخصال أحب الحزم

ولا أقبل أن يبارز موكلي

كما اتفق،

وإنما في ظل قواعد الفن[١٦] الصارمة!

**أونيغين** : وهذا ما نقدره فيكم!

شاهدي؟ ها هو:

مسيو غيو!

---

(١٦) فن المبارزة - المترجم.

لا أرى اعتراضا على

مقترحي بشهادته:

وعلى الرغم من أنه شخص مغمور

لكنه، وبالقطع، شريف أمين

ماذا الآن، هل نبدأ؟

**لينسكي** : نعم، فلنبدأ

(يبدأ زاريتسكي وغيو الإعداد للمبارزة، بينما يقف لينسكي وأونيغين متأملين).

**لينسكي وأونيغين (كل لنفسه على حدة)**: أعداء!.. متى أصبحنا أعداء

هل فرقنا التعطش للدماء؟

كم قضينا من الوقت معا

واقتسمنا الوقت واللقمة

والفكرة والعمل بصداقة!

اليوم نبدو كأعداء بالوراثة

نعدّ الموت لبعضنا البعض

بدم بارد

آه!..

لم لا نضحك لبرهة،

لم لا نفض يدنا

ونفترق بالحب؟

لا!.. لا!.. لا!.. لا!..

(زاريتسكي يفرق بين الخصمين، ويضع في يد كل منهما مسدسا، وغيو يختبئ وراء الشجرة.)

**زاريتسكي** : والآن اقتربا!

(زاريتسكي يصفق ثلاث مرات. يخطو الخصمان أربع خطوات للأمام، ويبدآن التصويب. أونيغين يطلق الرصاص أولا، يقع لينسكي. زاريتسكي وأونيغين يهرعان إليه).

**أونيغين** : قتل؟

**زاريتسكي** : قتل.

(أونيغين يمسك برأسه في هلع)

# الفصل الثالث

## المشهد الأول

حفل راقص في بيت أحد كبار الشخصيات في مدينة بطرسبورغ. يرقص الضيوف على إيقاع البولونيز[١٧]. يتطلع أونيغين إلى الراقصين بشرود.

**أونيغين (لنفسه)** : وأصبت هنا أيضا بالملل!..

إن اللمعان والحركة في المجتمع الراقي

غير قادرة على قهر آلام الماضي السرمدية..

فبعد أن قتلت صديقي في مبارزة،

وعشت بلا هدف أو عمل

حتى السادسة والعشرين،

يعذبني الفراغ بلا حدث

بلا وظيفة، بلا زوجة، بلا قضايا

لم أتعلم حرفة لنفسي.

من هنا كان منبع قلقي،

---

(١٧) رقصة بولندية ثلاثية الإيقاع، تؤدى غالبا في بداية الحفل الراقص، معبرة عن جلال وهيبة الحدث.

فاحترفت تغيير الأماكن

تركت ضيعتي،

بكل غاباتها وحقولها،

حيث تبدت لي كل يوم

ظلالا دامية.

بدأت الترحال بلا هدف،

أحمل همي وحيدا،

وماذا؟ مللت الترحال أيضا

لحظي التعس.

وها أنا أعود من جديد

مثل تشاتسكي[١٨] من البحر إلى الحفل[١٩]!

(الضيوف يبـدأون في رقص رقصة الإيكوسـيز، ينتحي أونيغين جانبا. الكل يتابعه باهتمام)

**الضيوف** : أخبرونا من في ذلك الجمع المنتخب

يقف صامتا ضبابيا؟

---

(١٨) ألكسندر تشاتسكي هو بطل الكوميديا الشعرية «ذو العقل يشقى» للشاعر الروسي ألكسندر غريبويدوف (١٩٧٥-١٨٢٩)- المترجم.

(١٩) الترجمة الحرفية هي «من السفينة إلى الحفل» - المترجم.

من ذاك هو؟ هل هو حقا أونيغين؟

نعم، هو!

هو بعينه، بعد أن عركته الحياة،

هل لا يزال غريب الأطوار

كما كان في الماضي؟

أخبرونا لم عاد،

وما الذي يحمل على إظهاره الآن؟

هل أصبح الرحالة ميلموت[٢٠]،

أو أصبح عالميا أو وطنيا،

هل عاد كالصبي هارولد[٢١]، أو عاد عنيدا

أم أنه ارتدى قناعا متذاكيا آخر،

أو يكون بسيطا وديعا؟

**(يدخل الأمير غريمين، وتتأبطه تاتيانا)**: انظروا، انظروا!

الأميرة غريمينا! شاهدوها، شاهدوها!

(يفسح الضيوف الطريق لغريمين وتاتيانا)

---

(٢٠) أشهر كتب الكاتب الإنجليزي من أصول أيرلندية تشارلز روبرت ماتيورين (١٧٨٢-١٨٢٤) - Melmoth the Wanderer، وقد ذاعت شهرة الكتاب جميع أنحاء أوروبا، بما في ذلك فرنسا وروسيا - المترجم.

(٢١) راجع رقم ١٣.

**مجموعة الرجال** : من هي؟

**مجموعة أخرى** : انظروا هنا!

**السيدات** : ها هي، جلست أمام الطاولة

**الرجال** : إنها ساحرة الجمال!

**أونيغين (ينظر نحو تاتيانا، لنفسه)**: أمعقول أنها تاتيانا؟.. حقا!.. نعم!..

كيف! من مجاهل تلك الأطراف؟!

غير ممكن.. غير ممكن..

كم هي بسيطة، كم عظيمة،

كم متعالية!..

تبدو كالقيصرة!

(أونيغين ينتحي بغريمين جانبا)

**تاتيانا (للضيوف)** : أخبروني، من هو ذاك.. الذي ينتحي بزوجي جانبا؟

لا أستطيع رؤيته جيدا.

**الرجال** : رجل غريب الأطراف، من رجال الحاشية الملكية

كئيب، غريب أحمق...

كان يرتحل بعيدا.. وها هو

عاد إلينا، أونيغين.

**تاتيانا** : يفغيني؟

**الرجال** : هل تعرفونه؟

**تاتيانا** : كان جارا لنا في القرية

(لنفسها)

يا إلهي، ساعدني في إخفاء

ما تكنه روحي من قلق عظيم!

**أونيغين (لغريمين)** : أخبرني أيها الأمير، ألا تعرف،

السيدة التي ترتدي غطاء رأس قرمزيا

وتتحدث إلى السفير الإسباني؟

**غريمين** : أوه، منذ زمن لم تظهر تحت الأضواء!

انتظر لأقدمك إليها!

**أونيغين** : من هي؟

**غريمين** : زوجتي

**أونيغين** : أنت متزوج إذن؟ لم أكن أعلم من قبل.

منذ مدة طويلة؟

**غريمين** : منذ عامين.

**أونيغين** : على من؟

**غريمين** : على لارينا[٢٢]

**أونيغين** : تاتيانا؟

**غريمين** : أتعرفها؟

**أونيغين** : كنت جارهم.

**غريمين** : أمام الحب كل الأعمار متساوية

تصنع نسائمه المعجزات

للفتى اليانع في مقتبل شبابه،

بالكاد قد رأى الحياة،

ولمحارب عجوز مخضرم،

ذو رأس أشيب،

صلب بخبزاته وحنكته.

أونيغين، لا أخفيك سرا:

إنني أحب تاتيانا بجنون!

لقد مضت حياتي بهموم..

فظهرت وبددتها،

---

(٢٢) اسم العائلة لتاتيانا.

مثل شعاع شمس وسط الظلام،

فمنحتني الشباب، والسعادة.

بين أطفال كاذبات، تافهات،

وغريبات الأطوار المدللات

وبين الشريرات، والمضحكات والمملات،

والغبيات، والخفيفات،

بين الغاويات والمتدينات

ومشاهد الموضة اليومية

بين المجاملات وحوادث الخيانة

والأحكام الباردة والصخب القاسي،

بين الفراغ المقبض،

والحسابات والمناقشات العقيمة،

تلمع هي، كنجمة في الليل الحالك

وسط سماء صافية،

لتصبح لي للأبد،

في لمعان ملاك،

في لمعان ملاك مضيء!..

أمام الحب كل الأعمار متساوية

تصنع نسائمه المعجزات

للفتى اليانع في مقتبل شبابه،

بالكاد قد رأى الحياة،

ولمحارب عجوز مخضرم،

ذو رأس أشيب،

صلب بخبراته وحنكته.

أونيغين، لا أخفيك سرا:

إنني أحب تاتيانا بجنون!

لقد مضت حياتي بهموم..

فظهرت وبددتها،

مثل شعاع شمس وسط الظلام،

وأعطتني الحياة، والشباب،

الشباب، والسعادة.

الحياة والشباب والسعادة!

حسنا، دعني أقدمك لها!

**(غريمين يقدم أونيغين لتاتيانا)** : اسمحي لي، أن أقدم لك

صديقا حميما ومقربا،

أونيغين!

(أونيغين ينحني.)

**تاتيانا (لأونيغين)** : أنا سعيدة للغاية...

أعتقد أننا التقينا من قبل!

**أونيغين** : نعم... في القرية.. منذ زمن...

**تاتيانا** : من أين جئتم؟

هل جئتم الآن من هناك؟

**أونيغين** : كلا! بل جئت من ترحال بعيد

**تاتيانا** : متى عدتم؟

**أونيغين** : اليوم.

**تاتيانا (لغريمين)** : صديقي، لقد تعبت اليوم!

(تنهض تاتيانـــا متكئة على يـــد غريمين. أونيغين يودعها بنظراته.)

**أونيغين (لنفسه)** : أمعقول هي نفس تاتيانا،

التي وقفت أمامها ذات يوم،

محاضرا عن الأخلاق والقيم،

في تلك القرية المنزوية البعيدة،

أمعقول هي تلك الفتاة،

التي تجنبتها لتواضعها؟

هل هذه هي؟

كم متعالية، كم قوية؟

ماذا يحل بي؟ أحس وكأنني في حلم!

ما الذي يدور في أعماق

روحي الباردة الكسولة؟

يا لخيبة الأمل؟.. يا للصخب؟.. أم هو

عنفوان الشباب يدب من جديد - الحب؟..

وآحسرتاه، لا شك هناك، وقعت في الحب،

وقعت في الحب، مثل فتى، مملوء بمشاعر شابة!

فليأخذني الموت، ولكن قبلها

بأمل يعمي العيون،

سأستجدي ذلك النعيم المظلم،

أتعرف على حلاوة الحياة!

إنني أشرب سم الرغبة المسحور

تحاصرني الأحلام:

تقف أمامي صورتك

في كل مكان، كل مكان

ملهمي القدري،

في كل مكان، كل مكان

أمامي!

(أونيغين يخرج بسرعة. بينما يتابع الضيوف رقصة الإيكوسيز)

## المشهد الثاني

غرفة نوم الأميرة غريمينا[٢٣]، بينما تقرأ تاتيانا خطاب أونيغين.

**تاتيانا (باكية)** : أوه، قلبي يعتصره الألم! ها هو أونيغين
يظهر من جديد في طريقي، مثل شبح لا يرحم!
لقد نفذ إلى روحي بنظرات نارية،
وأحيا مشاعر كانت قد ماتت منذ زمن،
وكأنني عدت فتاة من جديد،
وكأننا لم نفترق يوما!...
(يدخل أونيغين. وحينما يـرى تاتيانا يجثو أمامها على ركبتيه.)

**تاتيانا** : كفى، انهضوا!..
لابد وأن أعترف لكم صراحة.
أونيغين، هل تتذكرون تلك اللحظة،
التي جمعنا فيها القدر في ذلك البستان،
واستمعت فيها إلى دروسكم بهدوء؟

---

(٢٣) تاتيانا - المترجم.

**أونيغين** : أوه، أشفقوا علي.. أشفقوا علي:

كم أخطأت، وكم عوقبت!

**تاتيانا** : أونيغين، لقد كنت وقتها أصغر سنا

وأعتقد أنني كنت إنسانا أفضل،

وقد أحببتكم.. ثم ماذا،

ماذا وجدت في قلبكم،

ماذا كان الجواب؟.. كانت القسوة وحدها!..

ولم يكن حب فتاة وديعة يمثل

بالنسبة لكم خبرا مثيرا؟

والآن.. يا إلهي! إن دمي ليتجمد،

حينما أتذكر نظرتكم الباردة،

وتلك المحاضرة!

لكنني لا ألقي بالذنب عليكم:

ففي تلك الساعة الصعبة، تصرفتم برقي،

وكنتم صادقين معي.

في تلك الصحراء،

بعيدا عن صخب المجتمع،

لم أعجبكم آنذاك، فلم تتعقبوني الآن؟

لم أصبحت محل اهتمامكم؟

لأنني أصبحت ملء السمع والبصر

ضمن علية القوم ونخبة المجتمع،

ولأن زوجي محارب مصاب،

ويحيطنا البلاط برعايته،

ألا يجعل ذلك من فضيحتي

موضوعا شهيا لحديث المجتمع،

وهو ما يغريك بخوض المغامرة؟

**أونيغين** : أوه! يا إلهي! أمعقول،

أمعقول أن يلمح بصرك القاسي

في توسلاتي المتواضعة،

ظل خبث حقير؟

إن عتابك يمزقني!

وأنتم تعرفون كم هو قاس

أن تغوص في حرمان الحب،

أن تتوهج فيجبرك العقل دائما

على كبح جماح الرغبة في دمك،

أن ترغب في احتضان قدميك،

وباكيا، جاثيا أمامهما،

تسكب التوسلات، والاعترافات، والأغاني،

وكل، كل ما يمكن التعبير به.

**تاتيانا** : إني أبكي

**أونيغين** : ابك! إن تلك الدموع

أغلى من كل كنوز العالم!

**تاتيانا** : أوه!

كم كانت السعادة ممكنة،

كم كانت قريبة، كم كانت قريبة!

**أونيغين** : أوه!

**تاتيانا وأونيغين** : كم كانت السعادة ممكنة،

كم كانت قريبة، كم كانت قريبة!

**تاتيانا** : لكن قدري قد حسم،

وبلا رجعة!

لقد تزوجت، ولا بد عليكم،

أطلب منكم، أن تتركوني وشأني!

**أونيغين** : أترككم؟! أترككم؟! كيف، أترككم؟!

كلا! كلا! سوف أتابعكم في كل دقيقة،

وأتعقبكم في كل مكان،

سوف أتصيد بعين المحب

ضحكة شفتيكم، حركة أعينكم،

بروحي سوف أهتم بكم، وأتفهم

كمال روحكم،

سوف أتجمد من فرط مشاعري أمامكم

ويشحب وجهي وأنطفئ: إنه الوجد،

هذا أملي،

وجدي وعشقي لكم!

**تاتيانا** : أونيغين، أطالبكم بحق الشرف الرفيق والكبرياء في قلبكم...

**أونيغين** : لا أستطيع أن أترككم!

**تاتيانا** : أونيغين، عليكم، أتوسل إليكم، اتركوني!

**أونيغين** : أوه، اشفقي عليّ!

**تاتيانا** : ولم أخف، ولم أكذب!

أوه! أنا أحبكم!...

**أونيغين** : ماذا أسمع؟!

أي كلمة نطقت بها الآن؟!

أوه، أيتها السعادة! يا حياتي بأسرها!

ها أنت قد عدت تاتيانا من جدي!.. «مقاطعاً»

**تاتيانا** : كلا، كلا!

فالماضي لا يعود،

وقد حسم قدري:

فقد وهبت لشخص آخر

وسوف أظل وفية لعهدي له!

**أونيغين** : أوه، لا تهربي! إنك تحبينني،

وأنا لن أتركك،

إنك تدمرين حياتك سدى...

إنها إرادة السماء: أنت لي!

وكنت طوال حياتك نصيبي

وملتحمة بي،

وأنا حاميك حتى القبر!

لن تستطيعين الفكاك مني

عليك من أجلي

أن تتركي بيتك والمجتمع الصاخب،

وليس أمامك طريق آخر!

**تاتيانا** : أونيغين! سوف أظل صلبة

فقدري مع شخص آخر،

وسوف أعيش معه، ولن أفارقه،

وعلي أن أحافظ على العهد

(لنفسها)

إن توسلاته اليائسة

تخترق قلبي عميقا،

لكن حماسة الذنب تقهر،

دين العهد الصارم والمقدس،

فتنتصر المشاعر!

(معا)

**أونيغين** : لن تستطيعين الفكاك مني!

عليك من أجلي أن تتركي كل شيء، كل شيء!

أن تتركي بيتك والمجتمع الصاخب،

وليس أمامك طريق آخر!

أوه، لا تهربي، أتوسل إليك!

إنك تحبينني،

إنك تدمرين حياتك سدى!

أنت ملكي، ملكي للأبد!

**تاتيانا** : سوف أغادر!

**أونيغين** : كلا، كلا، كلا، كلا!

**تاتيانا** : كفى!

**أونيغين** : أوه، أتوسل إليك: لا تذهبي!

**تاتيانا** : سوف أظل صلبة!

**أونيغين** : أحبك، أحبك!

**تاتيانا** : اتركني!

**أونيغين** : أحبك!

**تاتيانا** : الوداع للأبد!

**أونيغين** : أنت ملكي!

(تاتيانا تغادر.)

يا للفضيحة!.. يا للعار!..

يا لنصيبي التعس!

ستار

# الدراسة النقدية

## د. أشرف الصباغ

يقول الباحث الروسي ف. إيفانوف عن رواية «يفغيني أونيغين»: «مع هذا العمل الكبير بدأ ازدهار الرواية في روسيا. وهذا الازدهار كان واحدا من الأحداث الأكثر دلالة التي عرفتها الثقافة الأوروبية المعاصرة». أما المؤرخ كليوتشفسكي، فاعتبرها «وثيقة تاريخية بفضل ما فيها من تصوير للبيئة الروسية». وبالتالي، فهذه الرواية تحتل مكانة مؤسّسة، طالما أن الرواية في روسيا كانت قبل ذلك شيئا آخر تماما. أما الموسيقي بيور إليتش تشايكوفسكي، الذي كان مهتما بكتابة أعمال موسيقية تعبّر عن روح الشعب الذي ينتمي إليه، فلم يتردد لحظة في اختيار «يفغيني أونيغين». وهكذا خرجت إلى النور واحدة من أجمل الأوبرات في تاريخ هذا الفن.

إن رواية «يفغيني أونيغين» هي أول عمل فني قومي في روسيا. وبها يكون بوشكين قد أسس قاعدة متينة للشعر والأدب والفن الروسي الجديد. ومن خلال هذه الرواية يمكننا أن نتابع حياة الشعب الروسي خلال فترة من أهم فترات تطوره التاريخي والاجتماعي، حيث طرح الشاعر في الرواية حياة روسيا منذ نهاية العقد الأول وحتى منتصف العقد الثالث من القرن التاسع عشر، حيث عكس واقع حياة الشعب بكل تناقضات الواقع والحياة معا. وهي فترة استيقاظ الوعي القومي الذي بدأ مع مغامرة نابليون

بونابرت بالهجوم على روسيا عام ١٨١٢ وازدياد تذمر النبلاء الوطنيين المتنورين من ممارسات السلطة القيصرية المطلقة. وقد بدأ بوشكين بكتابة هذه الرواية في فترة انتعاش الحركة الثورية الديسمبرية، وانتهى منها بعد القضاء على هذه الحركة التي كانت تمثل أمل الكثيرين في إنقاذ روسيا من الحكم القيصري المطلق.

لقد برع بوشكين في وصف حياة العاصمة والمدن الكبرى والصغرى، وحياة القرى والريف الروسي، وسجل بحيوية فائقة حياة الإقطاعيين وعلاقاتهم الاجتماعية المبنية على عدم الثقة، وعلى الشك الدائم ببعضهم.

إن النص البوشكيني الأصلي مملوء بالشخصيات، على عكس الأوبرا المقتبسة عنه، حيث اكتفى بيوتر تشايكوفسكي بالشخصيات الرئيسية لكي يُحرِّك من خلالها أحداث الفصول الثلاثة للأوبرا. ولكن بالنسبة إلى بوشكين فقد كان الأمر مختلفا، حيث حشد عشرات الشخصيات والأماكن والأفكار ليصوِّر الحياة الروسية بكل تجلياتها وطبقاتها وصراعاتها وحدتها المزاجية والعاطفية والنفسية، من أجل طرح وتجسيد نوازع معينة لكل تلك الشخصيات. ومع هذا نجد أن التركيز، في الرواية الأصلية كما كتبها بوشكين، ينحصر في أربع شخصيات مهمة، تتمحور الأحداث حولها: «يفغيني أونيغين» نفسه، ابن المجتمع المترف، العابث وغير العابئ بأي قيم حقيقية، ومن بعده يأتي الشاعر الرومانسي فلاديمير لينسكي. ثم تأتي الشقيقتان الحسناوتان تاتيانا وأولغا لارينا.

وفي مجال الأهمية نفسها هناك شخصية خامسة لها دور أساسي في الرواية لكنها متوارية في ثنايا العمل لا تظهر إلا في حالات وأحداث معينة. هذه الشخصية هي شخصية المؤلف نفسه. وهي شخصية لن نشعر بأي وجود لها في أوبرا تشايكوفسكي.

يجب الإشارة هنا إلى أن الشكل والصيغة الشعرية تعطي «يفغيني أونيغين» صفات وخصائص تميزها عن النثر العادي. فتعابيره رائعة وفائقة الشفافية، فهي تجعلنا قلقين ومتحمسين في آن واحد. وكل صيغة شعرية، وكل صورة لديه تكتسب صفاء خاصا وإقناعا من نوع خاص. إن الصيغة الشعرية هنا تحدد حركة الرواية وكلام الشخصيات. وفي الحقيقة، لا يمكننا أن نفصل بين الشاعر وبين الشخوص، فتارة يتحدث بلسانه وتارة أخرى بلسان أبطاله. وأونيغين يلتقي مع بوشكين في بطرسبورغ وفي أوديسا، بينما رسالة تاتيانا محفوظة عند بوشكين. كل ذلك واضح في حركة أحداث الرواية، حيث يحكي لنا عن بعض أحداث حياته، ويبادلنا الانطباعات والأفكار والأحاسيس والأحلام. كل ذلك جاء عبر استرسالات شعرية أدخلها بوشكين في روايته، من خلال جملة أشعار عاطفية رائعة. لقد طرح بوشكين صيغة وشكلا خاصين لروايته الشعرية الغنائية، فالأشعار في رواية «يفغيني أونيغين» تنساب كشلال دائم، حيث نراها موزعة على مجموعات صغيرة مقسمة إلى أربعة عشر مقطعا، وهذا بلا شك ينم عن قدرة عالية لدى الشاعر في صياغة النص الشعري. هذه الصياغة ساعدته بسهولة للانتقال من موضوع إلى آخر ومن قصة إلى أخرى في انسياب شعري غنائي.

الشخصية الرئيسة بين هذه الشخصيات، وكما يدلنا عنوان الرواية، هي، إذن، شخصية «أونيغين»، ابن المجتمع الراقي واللاهي والثري، والذي يرث ثروة طائلة عن عمّ له تدفعه إلى مغادرة العاصمة بطرسبورغ والعيش في الريف. وهو أمر يؤلمه في البداية، حيث تَرَبَّى أصلا على الطريقة الفرنسية، وكَوَّن لنفسه في العاصمة عالما من الأصدقاء والتابعين. فما الذي سيفعله في الريف؟ لكنه انتقل، والتقى بالشاعر الرومانسي المثالي لينسكي. وارتاد بصحبته بيت السيدة لارينا التي لديها فتاتان حسناوتان هما الرومانسية المكتئبة دائما تاتيانا، والمرحة ذات الحيوية أولغا.

إن أونيغين له أسلوبه المميز في الحوار والحديث، حيث لم يكن يصمت، إلا بعد تفوقه الكاسح على محاوره أو محدثه، ولكن على الرغم من ذلك فإن طبيعة الحياة الروتينية الرتيبة التي يعيشها المجتمع الذي ينتمي إليه خلقت فيه شيئا من السأم والملل والشعور بالغربة والاغتراب معا. وعبر هذه الشخصية يعرض لنا بوشكين أزمة الأفكار القديمة التي عانى منها مجتمع القرن الثامن عشر ثم انسحاب هذه الأزمة على القرن التاسع عشر واستمراريتها. وعلى الرغم من كل ما يحمله من صفات مميزة وإيجابية، فإنّه يظل ابن مجتمعه حيث يستمر في حياته الروتينية الرتيبة التي نشأ عليها منغمسا في لهوه ومقيدا بعادات مجتمعه، وبما يعتمل في نفسه وفي عقله من أفكار.

لقد دفع هذا الوضع أونيغين إلى اعتبار نفسه طفيليا أو زائدا على المجتمع. فهو يعيش بلا عمل، ولا يملك هدفا واضحا في الحياة. وإذا

أضفنا الأنانية والاستهتار، فمن الممكن أن نفهم كل التناقضات في تلك الشخصية المحورية، وما سيؤل إليه مصيرها.

وفي مقابل شخصية أونيغين يضع بوشكين شخصية لينسكي، ذلك المثقف النبيل الذي يختلف عن جاره أونيغين في الكثير من الأمور. فهو تعلم تعليما رفيعا، وتأثر كثيرا بأفكار «كانط»، وعشق الأدب والشعر على وجه الخصوص وله تجربة في نظمه. وظلّ حتى النهاية يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالمدرسة الرومانسية. وإذا كان أونيغين يعتمد في تفكيره على العقل والخبرة الحياتية فإن لينسكي على العكس من ذلك فهو يعتمد على الأحاسيس والمشاعر ويفكر عبر قلبه الطيب المليء بالأمل والمحب للحياة وللإنسان.

إن الشيء المشترك الذي يجمع بين أونيغين ولينسكي هو اتفاقهما على حب الحرية وفهم الإنسان. ولكن إضافة إلى الفوارق التي تم ذكرها بين الاثنين يظهر فرق آخر، ألا وهو سيطرة الأنانية والفردية على علاقات أونيغين مع الآخرين في حين تتجلى كل مظاهر التضحية والتفاني ونكران الذات في سبيل سعادة الآخرين في علاقات لينسكي.

شخصيتا أونيغين ولينسكي تقابلهما شخصيتا الأختين تاتيانا وأولغا. فالأولى عاطفية تعيش أفكارها وتأملاتها، تكاد تكون مريضة بحب، أو بوهم الحب، وربما بالرغبة في الحب. تنتظر فارس أحلامها لتهبه كل ما يجول بخاطرها من وعود وعهود وإلزام. بينما أولغا عابثة ومنطلقة، تعيش حياتها كما ترى.

لقد حصرنا النص الأوبرالي في قصة الحب والمكر الخداع والمكائد والخيانة. ولكن هذه التوليفة في زمنها كانت فعالة ومهمة وقادرة على الوجود في ذلك العصر الرومانسي الذي يحمل في طياته الكثير من التحولات المستقبلية، سواء في روسيا أو في أوروبا.

وهكذا، فالنص يبدأ بصورة بانورامية عن الريف الروسي الذي يبدو «سعيدا» للغاية، وبالتآلف والمحبة بين السادة والأقنان، وبعلاقة النبلاء بخدمهم المطيعين، وببيت السيدة لارينا أم تاتيانا وأولغا. صورة تبدو غريبة على من يسمع عن ثورات واحتجاجات تلك الفترة، والمطالبة بإلغاء قانون الرق في روسيا. إن هذه الصورة تخفي وراءها الكثير والكثير. هي صورة خادعة للغاية هدف للتغطية على كل مساوئ وتناقضات المجتمع بكل شرائحه وطبقاته.

إننا نعرف مباشرة بأن الأم، وعلى الرغم من إعلانها عن سعادتها وهدوئها النفسي، تزوجت على غير رغبتها. ولكنها تصالحت مع الأمر.

**المربية** : نعم، أتذكر.. أتذكر

كان في وقتها مازال عريسا

زوجكم في المستقبل

بينما كنتم بلا إرادة

تأملون في آخر

كان يروق القلب والعقل

على نحو أكبر بكثير

**لارينا** : وفجأة، ودون استشارتي...

**المربية** : ذهبوا بكما إلى الإكليل

ثم تبدد الحزن

بعدما انتقل الزوج إلى هنا سريعا

**لارينا** : أوه، كم بكيت في البداية!

وأوشكت على الطلاق من زوجي!

ثم انشغلت في أمور المنزل

تعوّدت، وأصبحت راضية.

**لارينا والمربية** : إن العادة قدر من أعلى

نستبدل بها السعادة

نعم هذا هو الحالّ

من الواضح أن الصورة البانورامية الأولى خادعة للغاية. فهنا مرارات في قلب الأم نفسها. بينما كل من ابنتيها تنتظر مصيرها.

**تاتيانا** : كم أحب التأمل على أنغام هذه الموسيقى

بعيدا بعيدا...

**أولغا** : آه، تانيا، تانيا

كم أنت حالمة، أمّا أنا فلست مثلك،

أفرح حينما أسمع الأغاني

**(ترقص)** : شاب يانع كالثمرة

يعبر جسرا خشبيا

لا أميل للحزن العميق

لا أحب التأمل في سكون

أو الوقوف في شرفة ليلا

أتأوه.. أتأوه

من أعماق وجداني.

لم التأوه، بينما تمضي

أيام الشباب بسعادة

أنا حرة منطلقة

يطلقون علي طفلة

سوف تشرق وتبتسم لي الحياة دائما

وسوف أظل كما أنا

مثل أمل طائر

مبتهجة، حرة، فرحة

مثل أمل طائر

مبتهجة، حرة، فرحة

لا أميل للحزن العميق

لا أحب التأمل في سكون

أو الوقوف في شرفة ليلا

أتأوه..أتأوه

من أعماق وجداني.

لم التأوه، بينما تمضي

أيام الشباب بسعادة

أنا حرة منطلقة

يطلقون علي طفلة

**لارينا (متوجهة إلى أولغا)** : كم تبدين مبهجة مفرحة كالطيور

يا صغيرتي المرحة

أكاد أرقص أنا الأخرى

أليس كذلك؟

**المربية (لتاتيانا)** : تانيوشا، آه تانيوشا

ماذا بك؟ هل مريضة أنت؟

تاتيانا!

**تاتيانا** : لا، مربيتي. أنا على ما يرام

هذه المقاطع تُبيِّن بشكل واضح شخصية الأختين، وظهر التناقض الحاد بين تركيبتيهما النفسية، بل والذهنية أيضا.

يطرح النص الأوبرالي شخصية لينسكي الشاعر - المثقف الحالم المثالي - وأونيغين الواقعي العابث الذي «يكاد» يكون عدميا.

**أونيغين (إلى لينسكي)** : أخبرني، من فيهن تاتيانا،

الفضول يقتلني لأعرف.

معا

**لينسكي** : ها هي، تلك الحزينة

الصامتة مثل سفيتلانا

**أونيغين** : أحقا تحب أنت الصغرى؟

**لينسكي** : ما هنالك؟

**أونيغين** : لكنت اخترت الأخرى

لو كنت أنا شاعرا مثلك

لا حياة في ملامح أولغا

تشبه لوحة العذراء لفان ديك

وجهها دائري أحمر

مثل ذلك القمر الأحمق

على خلفية هذا الأفق الأحمق

كنت اخترت الأخرى!

معا

**لينسكي** : أوه، يا صديقي العزيز! الموج والحجر

والشعر والنثر، والثلج والنار

تتشابه في أشياء بينهما

مثلي ومثلك كما نختلف!

لقد دعا لينسكي جاره أونيغين إلى بيت السيدة لارينا. ويمكننا أن نعرف أن هذا التقليد كان أحد أساليب التعارف بين رجال ونساء هذه الطبقة الاجتماعية. كما نعرف أن لينسكي قد خطب لنفسه أولغا. أما تاتيانا فسرعان ما تهيم حبا بيفغيني.

**تاتيانا (هامسة)** : بعد طول انتظار، ها أنا ألقاه!

أعلم ذلك حق العلم: إنه هو!

الآن، ومع الأسى، من الآن فصاعدا

ستملأ صورته الأيام والليالي

والحلم الخانق الوحيد!

كل شيء، كل شيء ستملأه تلك الطاقة السحرية

بلا توقف، وسيؤكد كل شيء من حولي

على وجوده، وستحرق نار حبه وجداني!

أما أولغا الواقعية العابثة المحبة للحياة، فهي تتحدث على نحو آخر تماما:

**أولغا (هامسة)** : أوه، كنت أعلم أن ظهور أونيغين

سيترك لدى الجميع أثرا كبيرا

ويسلّي جميع الجيران

وستسري التخمينات إثر التخمينات

وسيتحدث الجميع بحماسة

وسيضحكون ويمرحون ويحكمون ببراءة

وسيكون لتانيا خطيبا!

ويسير الحوار في خط مستقيم ليظهر العلاقة «الخشنة»، غير الممهدة، بين لينسكي وأولغا. بينما يظهر استخفاف أونيغين بتاتيانا:

**أونيغين لتاتيانا** : أخبروني،

جميلة وهادئة ونائية ضواحيكم هذه

لكن، ألا تملّون من هذا الهدوء؟

لا أعتقد أن لديكم هنا من الترفيه

ما يبعث على السرور

**تاتيانا** : إنني أقرأ كثيرا

**أونيغين** : حقا

إن القراءة غذاء الروح

لكن ليس بالقراءة وحدها يحيا المرء!

**تاتيانا** : أحيانا ما أتأمل، بينما أمشي الهوينى في الحديقة

**أونيغين** : وفيم تتأملون؟

**تاتيانا** : إن التفكير العميق صديقي

منذ نعومة أظفاري

**أونيغين** : أرى شاعريتكم المفرطة،

كنت كذلك في وقت ما!..

ومع ذلك تهيم تاتيانا بيفغيني، لدرجة المرض. تتنازعها كل العادات والأخلاقيات. وفي النهاية، تبعث إليه برسالة تعترف له فيها بكل تفاصيل

روحها وما يعتمل في قلبها ووجدانها من مشاعر وأحاسيس. رسالة تكاد تكون توسلا. وهنا تبدأ الذروة الأولى في هذا النص عندما يلتقيها أونيغين ليلقنها درسا مليئا بالمواعظ الأخلاقية:

**أونيغين** : لقد كتبتم لي،

لا تنكروا، فقد قرأت

اعتراف وجدانكم الصادق،

وفائض حبكم البريء.

لاشك أن صراحتكم تروق لي،

ودفعتني بأحاسيسي الهامدة منذ فترة طويلة

إلى التوتر والقلق،

لكنني لست هنا كي أمدحكم

أود أن أعترف لكم أنا الآخر

بصدق وبلا تكلف

فلتسمعوا اعترافي من فضلكم

ولتحكموا بأنفسكم.

**تاتيانا (تهمس لنفسها)**: يا إلهي، كم ذلك مؤسف، كم هو مؤلم!

**أونيغين** : إذا ما قدر لي يوما أن أقصر

حياتي على محيط أسري،

إذا ما قدر لي نصيبي الطيب يوما

أن أصبح زوجا وأبا،

فلعلني لن أبحث عن

عروس آخر سواك.

لكنني لم أولد للاستقرار،

غريبة روحي عليه،

إن كمالك غير ذي جدوى،

لا أستحقه البتة.

صدقوني (والضمير هنا الحاكم)،

ليسببن الزواج لنا كربا،

ومهما بلغ مقدار حبي لكم،

بحكم العادة سأتوقف عنه في التو.

ولتحكموا بأنفسكم، أي ورود

يجلبها لنا غيميني

وربما لأيام طويلة قادمة.

لا عودة للأحلام أو السنين،

أوه، لا عودة.

ولن أعيد تجديد روحي!..

إنما أحبك حبا أخويا،

حبا أخويا

وربما، ربما حبا أرق!

فلتسمعوني دون غضب:

سوف تتبدل الأحلام البسيطة بأحلام أخرى

للفتاة البكر الجميلة أكثر من مرة

تعلّموا السيطرة على مشاعركم،

فلن يتفهمكم الجميع كما تفهمتكم،

وقد تعرضكم سذاجتكم للمتاعب!

لا أحد يمكنه أن يقرأ روح أو ضمير يفغيني. ولكنه يبدو أنه يفضل أولغا الواقعية المرحة العابثة على تاتيانا المثالية الحالمة. ومن الواضح أنه لا يوجد أي وازع أخلاقي يمكنه أن يمنعه عن المحاولة، على الرغم من معرفته بعلاقة صديقه لينسكي مع أولغا، وبأنهما في حكم الخطيبين. هل فهم يفغيني أبعاد وحدود العلاقة بين لينسكي وأولغا، وأدرك أنها علاقة «خشنة» وغير ممهدة؟ هل يمتلك يفغيني عين الصقر لكي يدرك أن أولغا ترغب في أكثر وأكبر من لينسكي؟! هل قرر يفغيني التخلص

من تاتيانا باستخدام أولغا، ولو لمرة واحدة؟ هل سيطرت عليه العدمية لدرجة أنه لم يحسب أي حساب لأي علاقات، أم أنه الاستهتار المرتبط بحياته وقناعاته والناجم أصلا عن فكرته حول المجتمع الذي يعيش فيه تناقضات هذا المجتمع القاتلة؟!

ينتهي الفصل الأول بالتمهيد لأقصى ذروة ممكنة يمكن أن تصل إليها الأحداث في الفصل الثاني، حيث تظهر ليس فقط أدق الملامح النفسية لكل شخصية، بل وأيضا السلوكيات والتصرفات العملية المرتبطة بتكوين كل شخصية من الشخصيات الأربع.

لقد استمع يفغيني أونيغين إلى آراء الناس فيه عندما، وبعد، أن رقص مع أولغا غير عابئ بصديقه فلاديمير لينسكي:

**المجموعة الأولى** : يا له من عريس!

**المجموعة الثانية** : نأسف لتانيوشا

**المجموعة الأولى** : سوف يتزوجها...

معا

**ثم يصبح مستبدا كالبقية**: يقولون إنه مقامر!

(أونيغيـــن ينتهي من الرقص، ويمضي عبر القاعة، بينما يستمع إلى همهمات السيدات عنه)

**السيدات** : هو شديد الجهل، وأحمق

لا يقترب من أيدي النساء

ماسوني، يشرب وحده

كأسا من الشراب!

**أونيغين (مخاطبا نفسه)** : ها هي الآراء!

استمعت بما فيه الكفاية

إلى كل الشائعات المغرضة!

التي يشركونني فيها!

لم أتيت إلى هذا الحفل السخيف؟ لم؟

لن أغفر لفلاديمير هذه الفعلة!

سوف أولي أولغا اهتمامي،

لأثير غضبه!

هل غضب أونيغين فعلا من صديقه فلاديمير لأنه دعاه لهذا الحفل، أم غضب لأنه رأى نفسه في عيون الآخرين؟! والآخرون هنا استطاعوا أن يروا أحد أوجهه النفسية والروحية المظلمة؟!

هنا أيضا لا يمكن أن نتجاهل كلمة «ماسوني» التي تمنح الشخصية بعدا ثقافيا ووجوديا إضافيا. وتحيلنا إلى المقدمة التي تحدثنا فيها عن «الماسونية» وعلاقة بوشكين نفسه بالماسونيين. ومع ذلك فأونيغين ليس

بوشكين، وإنما الأقرب له هو لينسكي. وربما وزَّع بوشكين روحه ونفسه بين شخصيتين. ما يحيلنا أيضا إلى علاقة الكاتب بأبطاله. لكن لا ينبغي أن نقع في فخ التجربة الشخصية والسيرة الذاتية للكاتب، لأن جزءا من عبقرية هذا النص، هو أن الأحداث الحقيقية التي جرت في الواقع مع بوشكين نفسه، وقعت في ما بعد، وليس قبل كتابة النص.

تنهار العلاقات بين الشخصيات الأربع في المشهد الأول من الفصل الثاني، حيث يتلاعب الجميع بمشاعر وأحاسيس الجميع، وحيث الغيرة، والذكورية المقيتة والعنف واستعراض القوة التي يمارسها الرجال مع بعضهم البعض وليس فقط مع النساء. ينتهي الأمر بمأساة التمهيد لذروة النص الأوبرالي في المبارزة التي يقتل فيها لينسكي على يد صديقه أونيغين.

بعد سنوات، يعود أونيغين إلى بطرسبورغ. يلتقي تاتيانا في بيتها بإحدى الحفلات. لقد صارت الآن سيدة مجتمع، متزوجة من جنرال في الجيش. لم تعد تلك الفتاة المنطوية الخجولة الحالمة.

أمعقول هي نفس تاتيانا،
التي وقفت أمامها ذات يوم،
محاضرا عن الأخلاق والقيم،
في تلك القرية المنزوية البعيدة،
أمعقول هي تلك الفتاة،
التي تجنبتها لتواضعها؟

هل هذه هي؟
كم متعالية، كم قوية؟
ماذا يحل بي؟ أحس وكأنني في حلم!
ما الذي يدور في أعماق
روحي الباردة الكسولة؟
يا لخيبة الأمل؟.. يا للصخب؟.. أم هو
عنفوان الشباب يدب من جديد - الحب؟..
وآحسرتاه، لا شك هناك، وقعت في الحب،
وقعت في الحب، مثل فتى، مليء بمشاعر شابة!
فليأخذني الموت، ولكن قبلها
بأمل يعمي العيون،
سأستجدي ذلك النعيم المظلم،
أتعرف على حلاوة الحياة!
إنني أشرب سم الرغبة المسحور

يبدو أن أونيغين لم يتغير. وربما يكون قد تغير، ولكن المبادرة الآن لم تعد بيده. كل ما هنالك أنه قادر في كل الأوقات، وبعد كل الكوارث والمصائب، على التبرير وتأنيب النفس. لديه قدرة جبارة على إدانة نفسه، وفي الوقت نفسه مواصلة نفس الطريق ونفس المسار. إنه ببساطة يطرح نفسه بديلا لزوج تاتيانا. يعود مجددا ليولع بها بعد أن رفضها وأهانها. هل لأنه أدرك التحولات التي حصلت لها، ورأى فيها ما لم يره منذ عدة

سنوات مضت؟ هل لأنه لا يزال مستهترا وعدميا؟! لقد راح يصارحها بحبه أكثر من مرة. ولكنها كانت تتعامل معه برقي شديد واحترام ومودة، ووفقا لتقاليد هذا المجتمع.

**تاتيانا (باكية)** : أوه، قلبي يعتصره الألم! ها هو أونيغين
يظهر من جديد في طريقي، مثل شبح لا يرحم!
لقد نفذ إلى روحي بنظرات نارية،
وأحيا مشاعر كانت قد ماتت منذ زمن،
وكأنني عدت فتاة من جديد،
وكأننا لم نفترق يوما!...
(يدخل أونيغين. وحينما يـرى تاتيانا يجثو أمامها على ركبتيه.)

**تاتيانا** : كفى، انهضوا!..
لابد وأن أعترف لكم صراحة.
أونيغين، هل تتذكرون تلك اللحظة،
التي جمعنا فيها القدر في ذلك البستان،
واستمعت فيها إلى دروسكم بهدوء؟

**أونيغين** : أوه، أشفقوا علي.. أشفقوا علي:

كم أخطأت، وكم عوقبت!

**تاتيانا** : أونيغين، لقد كنت وقتها أصغر سنا

وأعتقد أنني كنت إنسانا أفضل،

وقد أحببتكم.. ثم ماذا،

ماذا وجدت في قلبكم،

ماذا كان الجواب؟.. كانت القسوة وحدها!..

ولم يكن حب فتاة وديعة يمثل

بالنسبة لكم خبرا مثيرا؟

والآن.. يا إلهي! إن دمي ليتجمد،

حينما أتذكر نظرتكم الباردة،

وتلك المحاضرة!

لكنني لا ألقي بالذنب عليكم:

ففي تلك الساعة الصعبة، تصرفتم برقي،

وكنتم صادقين معي.

في تلك الصحراء،

بعيدا عن صخب المجتمع،

لم أعجبكم آنذاك، فلم تتعقبونني الآن؟

لم أصبحت محل اهتمامكم؟

لأنني أصبحت ملء السمع والبصر

ضمن علية القوم ونخبة المجتمع،

ولأن زوجي محارب مصاب،

ويحيطنا البلاط برعايته،

ألا يجعل ذلك من فضيحتي

موضوعا شهيا لحديث المجتمع،

وهو ما يغريك بخوض المغامرة؟

**أونيغين** : أوه! يا إلهي! أمعقول،

أمعقول أن يلمح بصرك القاسي

في توسلاتي المتواضعة،

ظل خبث حقير؟

إن عتابك يمزقني!

وأنتم تعرفون كم هو قاس

أن تغوص في حرمان الحب،

أن تتوهج فيجبرك العقل دائما

على كبح جماح الرغبة في دمك،

أن ترغب في احتضان قدميك،

وباكيا، جاثيا أمامهما،

تسكب التوسلات، والاعترافات، والأغاني،

وكل، كل ما يمكن التعبير به

لقد أصبحت المبادرة الآن في يدها. ورغم ذلك، فهي تظهر كل الاحترام، وتتفادى الاتهامات والتأنيب والإدانة. هل لأنها لاتزال تحبه فقط، أم من أجل تعميق جرحه؟! هل لأنها كتركيبة إنسانية وذهنية مختلفة، لا تستطيع أن تسخر منه أو تستهزئ به كما فعل معها قبل سنوات، أم لأنها موزعة بين القلب والضمير، حائرة بين حب هش وواجب تمليه عليها ليس فقط كل أنواع الأخلاقيات، بل وأيضا تركيبتها الإنسانية والروحية الطبيعية والأصيلة؟!

**تاتيانا** : لكن قدري قد حسم،

وبلا رجعة!

لقد تزوجت، ولا بد عليكم،

أطلب منكم، أن تتركوني وشأني!

**أونيغين** : أترككم؟! أترككم؟! كيف، أترككم؟!

كلا! كلا! سوف أتابعكم في كل دقيقة،

وأتعقبكم في كل مكان،

**تاتيانا** : أونيغين، أطالبكم بحق الشرف الرفيق والكبرياء في قلبكم...

ولكن تاتيانا تفاجئنا، كما تفاجئ أونيغين، بأنها
لا تزال تحبه:

**تاتيانا** : ولم أخف، ولم أكذب!
أوه! أنا أحبكم!...

إنها تنطق بهذه الكلمات، وكأنها تدلي باعتراف. ولكن هذا لا يعني إطلاقا أنها سوف تبدأ بوضع خطط وأحلام مستقبلية مع أونيغين. يبدو أنها أقوى بكثير مما يتصور ليس فقط أونيغين، بل وكاتب النص نفسه. إن تاتيانا تحل لنا الكثير من غموض تلك المواقف التي تتكرر في الحياة وفي الأدب والفن. تحيلنا إلى مستوى أعلى قليلا من توقعاتنا المتواضعة والمباشرة والعادية. إنها تعترف له لكي تغلق هذا الباب مرة واحدة وإلى الأبد. يبدو أن كل ما تبقى في قلبها نحوه، هو الشفقة.

**تاتيانا** : كلا، كلا!
فالماضي لا يعود،
وقد حسم قدري:
سوف أظل وفية لعهدي!

**تاتيانا** : أونيغين! سوف أظل صلبة
فقدري مع شخص آخر،
وسوف أعيش معه، ولن أفارقه،

وعلي أن أحافظ على العهد

(لنفسها)

مكتبة

t.me/ktabrwaya

إن توسلاته اليائسة

تخترق قلبي عميقا،

إن الحوار في المشهد الأخير من الفصل الثالث، يعيدنا إلى علاقة تاتيانا بوشكينا مع دانتيس (وليس تاتيانا لارينا مع أونيغين). يعيدنا إلى رسائل بوشكينا إلى دانتيس التي تكاد تتشابه فيها الكلمات والتعبيرات والاعترافات. مع الأخذ بعين الاعتبار أن الأحداث الحقيقية التي جرت في الواقع، جاءت بعد كتابة هذا النص الذي يجعلنا نعيد النظر في قدرة الكتابة وطاقتها وسحرها، وفي قدرة بوشكين الإبداعية الجبارة وقدرته على الرؤية عبر الزمن والظروف والتحولات الاجتماعية والسياسية.

إن شخصية أونيغين عند بوشكين تناثرت إلى ذرات كثيرة في العديد من مؤلفات الكتاب الروس في ما بعد، سواء في شخصية «بيتشورين» عند ليرمنوف في رواية «بطل من هذا الزمان»، أو في شخصية «أبلوموف» عند إيفان جونتشاروف في رواية «أبلوموف». قد تتفاوت حدة ودرجات الاستهتار والعدمية لدى بيتشورين أو أبلوموف، ولكن «أونيغين» كان الكتلة الأساسية التي انفجرت وتوزعت على شخصيات العديد من الأعمال الأدبية الروسية، وعلى شباب روسيا نفسهم، في الحقب السياسية والاجتماعية المختلفة، وفي خضم التحولات التي جرت في تاريخ هذا البلد.